الكتاب الأول

في الحياة الاجتماعية

من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب الأول
سكان المملكة الإسلامية

عنصر الأتراك - في هذا العصر الذي نؤرّخه، ظهر في المملكة الإسلامية عنصر كبير بجانب العنصرين العظيمين - الفرس والعرب - وهو عنصر الأتراك، وكان له أثر كبير في تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها السياسية والاجتماعية.

ذلك أن المعتصم الذي تولّى الخلافة سنة ٢١٨هـ استقدم سنة ٢٢٠هـ قومًا من بخاري وسمرقند وفرغنة وأشروسنة وغيرها من البلاد التي نسيمها «تركستان» وما وراء النهر، «اشتراهم وبذل فيهم الأموال، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب، وأمعن في شرائهم حتى بلغت عِدَّتهم ثمانية آلاف مملوك، وقيل ثمانية عشر ألفًا» وهو الأشهر[1].

وسبب اتجاه المعتصم إلى الأتراك يرجع إلى أمور:

١ - إن أهم عنصر في الجند كانوا إلى عهد المعتصم هم الخراسانيين، وهو فُرس من خراسان، وكانوا عماد الدولة العباسية نحو قرن، من عهد إنشاء الدولة إلى المعتصم، كما كانوا حرس الخلفاء؛ وكان بجانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب، من مضر واليمن وربيعة، ولكن هؤلاء العرب كانوا أقل شأنًا وأقل حظوة، وأقل عددًا من الفرس.

ضعفت ثقة الخلفاء بالعرب على ممر الأيام؛ إذ رأوهم لا يتحمّسون للقتال لهم تحمّس الفرس. وقد تقدم أن رجلًا تعرض للمأمون بالشام وقال له: «يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان»! ولكن المعتصم بدأ

(١) النجوم الزاهرة: ٢/ ٢٣٢.

يشعر أيضًا بضعف ثقته بالفرس، وذلك أن كثيرًا من الجند لما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس، لأن أم المأمون فارسية، فدعتهم عصبيتهم للمأمون - نصف الفارسي - أن يتعصبوا لابنه العباس أيضًا.

وذكر «الطبري» أن الجند شغبوا لما بويع لأبي إسحاق -المعتصم- بالخلافة، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة، فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضروه فبايعه العباس ثم خرج العباس إلى الجند فقال: ما هذا الحب البارد! قد بايعت عمي، وسلمت الخلافة إليه. فسكن الجند[1].

لم تمر هذه الحادثة على المعتصم من غير أن تدعوه إلى التفكير العميق حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث، ففكر أن يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب، فهداه تفكيره إلى الترك، وظل لا يصفو للعباس ولا العباس يصفو له حتى اتهم العباس بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال المعتصم، فقبض على العباس وسجن ومنع عنه الماء حتى مات.

٢- وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك، وهو أن أم المعتصم أصلها من هذه الأصقاع التركية، فقد كانت من السُّغد، واسمها ماردة، وكان في طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك، من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم؛ «كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره». ويقول أحمد بن أبي دُؤاد: «كان المعتصم يخرج ساعده إليّ ويقول: عضّ ساعدي بأكثر قوتك، فأمتنع، فيقول: إنه لا يضرّني! فأورم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلًا عن الأسنان»[2]! فدعته العصبية التركية والتشابه الخلقي أن يفكر في استدعاء الأتراك ففعل.

---

(١) طبري: ١٠/ ٣٠٤.

(٢) تاريخ الخلفاء: ١٣٣.

استكثر المعتصم من الأتراك حتى ملئوا بغداد وضايقوا أهلها، قال المسعودي: «كانت الأتراك تؤذي العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول في الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير، أو صبي أو ضرير؛ فعزم المعتصم على النقلة معهم... فانتهى إلى موضع سامَرّا، فأحضر الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار، ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار، فجعل للأتراك مواضع متميزة، وجاورهم بالفراغنة والأشروسنية... وأقطع أشْناس التركي وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرّا إلخ»[1]. كان من هؤلاء الأتراك مسلمون أسلموا على أثر فتح المسلمين لبلادهم في العصر الأموي، ومنهم مجوس وثنيون أخذوا يسلمون عند استقدام المعتصم لهم، وكانوا يتكلمون التركية فأخذوا يتعلمون العربية، وقد عرفوا بالشجاعة والصبر على القتال كما عرفوا بخشونة البداوة وقسوة الطبيعة؛ وحافظ المعتصم على دمائهم أن تبقى متميزة فجلب لهم نساء من جنسهم زوّجهن لهم، ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهم.

مكّن المعتصم للأتراك في الأرض، وكانوا في أول أمرهم قوة للدولة، وبسببهم - على الأكثر - يرجع انتصارهم على الروم في وقعة عمورية سنة ٢٢٣هـ، فكانت القيادة العليا في يد الأتراك وعلى رأسهم أَشْنَاس.

من ذلك التاريخ دخل في نزاع العصبية عنصر قوي جديد، فقد كان النزاع قبلُ بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والترك؛ وكان العرب قد ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس، فجاءت قوة الترك ضغثًا على إبّالة، وتوجّهت قوة الترك أولًا - لإضعاف شأن هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان. وأخذ التاريخ

(١) مروج الذهب: ١/ ٢٧٢ وما بعدها.

الإسلامي يصطبغ بالصبغة التركية، وبعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس، كأبي مسلم الخراساني والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل، وعبد الله بن طاهر وأمثالهم، ظهر التاريخ مرتبطة أحداثه بأشناس، وإيتاخ، وبُغَا الكبير، وبغا الصغير، وابن طولون وأمثالهم من الأتراك، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين في شئونها.

وبدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد، فقد شكا أهل بغداد للمعتصم وقالوا له: تحوّل عنا وإلا قاتلنا! قال: وكيف تقاتلونني وفي عسكري ثمانون ألف دارع؟! قالوا: نقاتلك بسهام الليل - يعنون الدعاء - فقال المعتصم: والله ما لي بها طاقة! فبنى لذلك سر من رأى وسكنها[1].

وهجا دِعْبِلٌ الخُزاعي المعتصم لتعصبه للأتراك وحمايته إياهم فقال:

لقد ضاع أمرُ الناسِ حيث يسوسهم ... وصِيفٌ وأشْنَاسٌ وقد عظم الخطبُ
وإني لأرجو أن ترَى من مغيبها ... مطالعُ شمس قد يَغَصُّ بها الشَّرْبُ
وهمُّك تُركي عليه مَهانةٌ ... فأنت له أمٌّ وأنتَ له أبُ

بل يظهر أن المعتصم نفسه - وهو جالب الأتراك - قارن بين خدمة الفرس للخلفاء قبله وخدمة الترك له، فحمد الأولى وذم الثانية؛ فقد روى الطبري أن المعتصم، دعا أبا الحسين إسحاق بن إبراهيم[2]، وبعد حديث طويل - قال المعتصم: يا إسحاق! في قلبي شيء أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة. فقال إسحاق: قل يا سيدي فأنا عبدك وابن عبدك. قال المعتصم: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة

(١) النجوم الزاهرة: ٢/ ٢٣٣.
(٢) هو والي بغداد للمأمون.

أنجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم! قال إسحاق: ومَن الذي اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين، فقد رأيتَ وسمعتَ؛ وعبد الله بن طاهر، فهو الرجل الذي لم يُر مثله؛ وأنت، فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبدًا؛ وأخوك محمد بن إبراهيم، وأين مثل محمد؟ وأنا فاصطنعت الأفشين، فقد رأيتَ إلى ما صار أمره؛ وأشناس، ففشلٌ أيُّه! وإيتاخ؛ فلا شيء، ووصيف، فلا مغني فيه! فقال إسحاق: أجيب يا أمير المؤمنين على أمان من غضب؟ قال: قل. قال إسحاق: يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعًا لم تنجب، إذ لا أصول لها! قال: يا إسحاق لَقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل عليّ من هلا الجواب[1].

وكره أهل بغداد مجيئهم إذ كانوا شؤمًا عليهم في حلّهم وترحالهم، فلما أقاموا بينهم كانت خيولهم تصيب الضعفاء والمرضى، ولما رحلوا عنهم إلى القاطول[2] ثم سامرا أثّر ذلك أثرًا سيئًا في بغداد من حيث تجارتها وحضارتها، فقال بعضهم في ذلك يعيِّر المعتصم:

أيا ساكن القاطول بين الجرامِقة ... تركتَ ببغداد الكِباشَ البطارِقة

وأخذ المحدّثون يضعون الأحاديث في ذمّ الترك تعبيرًا عن شعورهم وشعور الناس، فرووا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «الترك أول من يسلُب أمّتي ما خُوِّلوا»، وعن ابن عباس أنه قال: «ليكونن الملك - أو قال الخلافة - في ولدي حتى يغلب على عزّهم الحمر الوجوه، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرّقة»، وعن أبي هريرة أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يجيء قوم عراض الوجوه صغار الأعين،

(١) طبري: ١١/ ٨.

(٢) القاطول نهر كان في موضع سامرا قبل أن تعمر.

فطس الأنوف، حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة»[١].

زاد نفوذ الأتراك فشيئًا بكثرة ما كان يرد على عاصمة الخلافة من بلادهم، وبما أبدوا من بسالة في حروبهم، وبما تزاوجوا وتناسلو، وبتأييد الخلفاء لهم؛ فالواثق بعد المعتصم «استخلف سنة ٢٢٨هـ على السلطنة أشناس التركي وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجًا مجوهرًا. وأظنّه أول خليفة استخلف سلطانًا، فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه»[٢].

وفي أيامه نكل قواد الأتراك بكثير من الأعراب في مواضع مختلفة من جزيرة العرب، فمرة حول «المدينة»، ومرة باليمامة، وكان على رأس الجيش بُغَا الكبير التركي. واحتقر الأعرابُ أول أمرهم هؤلاء الترك وقالوا لمن استنجد بهم: ما هؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينّك العبر»! ولكن هؤلاء العبيد والعلوج انتصروا عليهم، وكان بغا يُحضر الواحد تلو الواحد من أسرى بني نمير ويضربه ما بين الأربعمائة إلى الخمسمائة واقل من ذلك وأكثر. وعاد بغا ومعه الأسرة من قبائل مختلفة من العرب[٣]، ولهذه الحادثة وأمثالها أثر في ضعف نفسية العرب أمام الترك.

وكان مما فعله المعتصم متمّمًا لاعتماده على الأتراك أن كتب إلى واليه على مصر كَيْدُر، واسمه نصر بن عبد الله، يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب[٤] وقطع أعطياتهم. فلما قطع العطاء عنهم خرج يحيى بن الوزير الجَرَوِي في جمع لَخْم وجذام

(١) وردت هذه الأحاديث في معجم ياقوت مادة تركستان.

(٢) الخلفاء: ١٣٥.

(٣) انظر هذه الأحداث بطولها في تاريخ الطبري: ١١/ ١٢ وما بعدهما.

(٤) يراد بإسقاطهم من الديوان جذف أسمائهم من الدفاتر التي يقيد فيها أسماء الجنود الرسميين الذين يأخذون مرتبًا.

وقال: «هذا أمرٌ لا نقوم في أفضل منه[١] لأنه منعنا حقنا وفيئنا»؛ واجتمع إليه نحو من خمسمائة رجل. فتوجه إليهم مُظَفَّر بن كيدُر في بحيرة تِنيس، فأسر يحيى بن الوزير وتفرق عن أصحابه، فانقرضت دولة العرب من مصر وصار جندها العجم والموالي من عهد المعتصم، إلى أن ولي أحمد بن طولون التركي فاستكثر من العبيد وبلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركي، وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق[٢].

ولا شك أن هذه الحادثة أيضًا أضعفت من شأن العرب وخاصةً في مصر.

وتولّى المتوكل سنة ٢٣٢هـ، فكان قد مضى على مجيء الأتراك اثنتا عشرة سنة تمكنوا فيها من الأرض وعرفوا الناس والبلاد، وخدمتهم الحوادث في إعلاء سلطانهم؛ فرأينا إيتاخ التركي هو الذي بيده معظم الأمور.

وإيتاخ هذا غلام تركي كان طباخًا فاشتراه المعتصم، وكان ذا رجولة وبأس «فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطان أعمالًا كثيرة - وكان من أراد المعتصم أو الواثق قَتْله فعند إيتاخ يُقْتل وبيده يحبس، منهم محمد بن عبد الملك الزيات، وأولاد المأمون». فلما ولي المتوكل كان إيتاخ في أعلى مرتبته، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبربر والحجابة ودار الخلافة[٣]، حتى لقد خرج المتوكل مرة متنزهًا إلى ناحية القاطول وشرب وعربد على إيتاخ، فهمّ إيتاخ بقتله، فلما أصبح أُخبر المتوكل بذلك فاعتذر إلى إيتاخ وقال له: «أنت أبي وربّيتني»[٤]، نعم

(١) أي لا يوجد سبب يدعو إلى الثورة أفضل منه.
(٢) الولاة للكندي: ١٩٤، والخطط للمقريزي: ١/ ٩٤.
(٣) الطبري: ١١/ ٣٣.
(٤) المصدر نفسه.

إن المتوكل دبّر له مكيدة فقتله، ولكن هذا لم يضعف شأن الأتراك في شيء، بل أوغر صدرُهم على المتوكل.

أصبحت أمور الدولة في يد الأتراك، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب، فهم يكرهون الفرس والعرب، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس، وتعصّب كل فريق لقائد منهم، وهم كثيرو الطمع في الأموال لا يشبعون، وعلى الجملة فقد أصبحت «دار السلام» وما حولها ليست دار سلام.

«لابد أن يكون المتوكل قد شعر بهذا الجو الحانق بما يثيره الأتراك من شرور، ولابد أن يكون قد أحس الخطر على حياته منهم، ففكر أن ينقل عاصمة الخلافة من العراق إلى دمشق، وأن يعود إلى عاصمة الأمويين لعلّه يجد فيها من العنصر العربي من يغنيه عن العنصر التركي؛ ففي سنة ٢٤٣هـ، أي بعد خلافته بإحدى عشرة سنة رحل إلى دمشق، ولكنه لم يطل مقامه بها، فلم يستطب جوّها كما قالوا. وهو مع هذا لم يسلم من شغب جنود الشام عليه، «فاجتمعوا وضجّوا يطلبون الأعطية، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمي بالنشاب»[1]، فعاد إلى سامرا. وكان بين خروجه منها وعودته إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام، وبعد أربع سنوات من عودته قتله الأتراك.

لقد رأى المتوكل أن يتخلص من الأتراك ويعيد الدولة سيرتها الأولى، ولكن كان ابنه المنتصر يشايعهم، «فعزم -المتوكل- أن يفتك بالمنتصر، ويقتل وصيفًا وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم»[2]، وعزموا على الفتك به. فكان ذلك مفترق

(١) المسعودي: ٢/ ٢٠٤.

(٢) الطبري: ١١/ ٦٣.

الطرق، فإن نجح زالت دولة الأتراك وعادت غلبة الفرس، ورجعت الأمور إلى ما كانت عليه. ولكن شاء القدر أن ينجحوا هم، فتقدم باغر التركي حارس المتوكل ينفذ مؤامرة من القواد الأتراك على رأسهم بغا الصغير، ومعه عشرة غلمان من الأتراك وهو متلثّمون والسيوف في أيديهم، وصعدوا على سرير الملك: وضرب باغر «المتوكلَ» بالسيف فقدّه إلى خاصرته، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك. وأقبل الفتح (بن خاقان) يمانعهم فبعجه واحد منهم بالسيف في بطنه فأخرجه من متنه، فلفّا في البساط الذي قتلا فيه، وطرحا ناحية، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما، حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأمر بهما فدفنا.

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين، فكل من كان قبله مات حتف أنفه (إلا الأمين فقد قتل بعد هزيمته في الحرب). ولم يكن قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحدة بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده، ولم يكن قتله بيد باغر وحده بل بيد الأتراك. وكان في قتله حياة الأتراك وسلطانهم، وإنذار عام للبيت المالك أن من أراد أن يلي الخلافة فليذعن إذعانًا تامًا للأتراك، ومن حدّثته نفسه -من الخليفة فمن دونه- أن يناوئهم فليوطّن نفسه على القتل.

وهكذا كانت هذه الحادثة مصرعَ الخلافة، ومجد الأتراك، فكان الخليفة بعده خاتمًا في أصبعهم أو أقل من ذلك، حتى قنع بالسكة والخطبة، «وصار يُضرب ذلك مَثلًا لمن له ظاهر الأمر، وليس له من باطنه شيء، فيقال: قنع فلان من الأمر الفلاني بالسكة والخطبة، يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة»[1]، وفي هذا المعنى يقول بعضهم في الخليفة المستعين.

خَليفـــــــةٌ في قفَــــــص   بـــــين وَصِـــــيفٍ وبُغَـــــا

(١) الفخري: ٣٨.

يقـــولُ مـــا قـــالا لــــه كـــما يقـــول الببّغـــا

لقد شهد البحتري مقتل المتوكل وكان نديمه وجليسه، وفزع لذلك، ووصف مقتله في قصيدته الرائية المشهورة، يقول فيها:

ولم أنس وحشَ القصر إذ رِيع سِرْبُهُ وإذ ذُعــرت أطـــلاؤه وجــآذِرُه

وإذ صِيح فيــه بالرحيــل فهُتكــت عـــلى عجــل أســتارُه وســتائرُ

وفيها:

حُلــومٌ أضــلَّتها الأمــاني ومــدة تناهــت وحتــف أوشــكتُه مقــادِرُه

ومغتــصَبٍ للقتــل لم يُخــش رَهطُــه ولم يُحتـــشم أســـبابُه وأواصرُه

صريــع تقاضــاه الــسيوفُ حــشاشةً يجــود بهــا والمــوت حُمْــرٌ أظــافرُه

أدافــع عنـــه باليـــدين ولم يكـــن لِيَثْنِـي الأعــادي أعـزلُ الليـل حـاسره

ولـو كـان سـيفي سـاعة الفتـك في يـدي درى الفاتـك العجـلان كيـف أسـاوره

حــرامٌ عـــليّ الـــراح بعـــدَك أو أرى دمًـا بـدم يجـري عـلى الأرض مـائره

وهــل أرتجــي أن يطلــب الــدم واتــرٌ يَـدَ الـدهر والموتـور بالـدم واتـره؟

... إلخ.

بل يخيل إليّ أن البحتري هاله ما فعله الأتراك بسيده المتوكل وهو الذي مجّده في كثير من قصائده، وأسبغ عليه فيها نوعًا من التقديس.

وشـــبيه النبـــي خَلْقًـــا وخُلقًـــا ونـــسيب النبـــيّ جَـــدًّا فجَـــدًّا

يـــا ابـــن عـــم النبـــي حقًـــا ويـــا أز كـــى قـــريش دِينًـــا ونفـــسًا وعِرْضـــا

بنْـتَ بالفـضل والعلـو فأصبحـ ـت سماء وأصبح النـاس أرضـا

ولم يستطع أن يهجو الأتراك في صراحة وإقذاع، وهم الذين بيدهم السلطان؛ وآله ما آل إليه أمر الدولة وقد غلب عليها الأتراك، وما كانت عليه الدولة أيام كان السلطان سلطان الفرس، فحنق على الأولى، وحمد الأخرى. فيخيّل إليّ أنه قال «بمظاهرة» طريفة يرضي بها شعوره، وهي أنه حج إلى إيوان كسرى رمز سلطان الفرس، ووقف أمامه شاكيًا باكيًا، وقال سينيته البديعة المشهورة يندب حظه ويبكي أمسه:

حَـضرتْ رحَـلي الهُمـوم فوجَّهـ ـتُ إلى أبـيضِ المـدائن عنْـسي
أتـسلَّى عـن الحظـوظ وآسَـى لمحـلّ مـن آل ساسـان دَرْسِ
ذَكـرتْنِيهُمُ الخطـوب التـوالي ولقـد تُـذكر الخطـوبُ وتُنـسي

* * *

وهـو ينْبيـك عـن عجائـبِ قـومٍ لا يُـشابُ بالبيـانُ فـيهم بلَـبْسِ

* * *

لـيس يُـدْرَى أصـنعُ إنـسٍ لجـنّ سَـكَنُوهُ أم صُـنعُ جـنّ لإنـس
غـير أني أراه يـشهد أنْ لم يـك بانيـه في الملـوك بِـنكْسِ

بل هو يصرح بعد ذلك أن الفرس ليسوا قومه، ولكن لهم فضل على العرب بما أيدوا من ملكهم، وما خدموا في دولتهم (أي وليس كذلك الترك). وفضلًا عن ذلك فإنه يألف الأشراف من كل جنس، ويحب الأصول من كل قوم:

ذاك عنـدي وليـست الـدار داري باقتراب منهـا ولا الجِـنس جِنْـسي
غـير نُعْمَـى لأهلهـا عنـد أهـلي غرسـوا مـن ذكائهـا خـير غـرس

أَيِّـــدُوا مُلكنـــا وشـــدُّوا قـــواه بكـــماة تحـــت الـــسَّنورَ حُمْـــسِ
وأراني مـــن بعـــدُ أكلـــف بـــالأشرا ف طُـــرًّا مـــن كـــل سِـــنْخٍ وأُسِّ

فهذه القصيدة ليست نزعة شعوبية من البحتري كما يرى بعضهم، ولكنها - فيما أرى - حسرة على عهد الفرس بعد أن رأى عهد الأتراك، وبكاء على عصر كان الفرس فيه يحتفظون بأبهة الخليفة وعظمته، ويعملون ما عملوا في خدمته، وألمٌ من عصر الأتراك الذي محو فيه سلطة الخليفة وسلبوه سلطانه، وأخضعوه لإشارتهم، وجعلوه تابعًا لأمرهم ونهيهم، وأخيرًا فعلوا فعلتهم الشنعاء فقتلوه أشنع قتله، ولم يرعوا له ولا للخلافة أية حرمة.

وقد خلف لنا الجاحظ رسالة في موضوع العصبية عند مجيء الترك، وهي رسالة كتبها للفتح بن خاقان التركي في مناقب الترك، تمثّل لنا أصدق تصوير العصبية بين الجنود المختلفة لمّا جُند الأتراك، وما يقال عن الجنود يصح أن يقال عن غيرهم. وقد ذكر في هذه الرسالة أنه ألفها أيام المعتصم جالب الأتراك، وأنه أراد أن يوصلها إليه فلم تصل، لأسباب يطول ذكرها، ولم يبين لنا شيئًا من هذه الأسباب؛ والظاهر أنها لم تصل إليه لأن من كان في قصر المعتصم من الفرس والعرب عملوا على ألا تقع في يده فتعظم عصبيته للترك.

ويظهر أنه أعاد كتابتها من جديد على ضوء ما كان من عظمة الترك، وقدّمها للفتح ابن خاقان وزير المتوكل - وكل قوم من الجند في ذلك العصر كان لهم أدباء وعلماء ومتحدثون، يتكلمون في مناقب قومهم وميزتهم عن غيرهم. أما الأتراك فلم يكن لهم شيء من ذلك، فتعاون الفتح بن خاقان والجاحظ على أن يسدّا هذا النقص، ويبيّنا مناقب الترك؛ فكتب الجاحظ رسالته في ذلك وحكى فيها بعض أقوال الفتح. وقد استعمل الجاحظ عقله وقلمه وفلسفته في إعلاء شأن الترك تقربًا لذوي النفوذ،

وإظهارًا لمزيته البلاغية، بقطع النظر عن كونه يعتقد ما يقول أو لا يعتقد.

والرسالة قيّمة جدًّا من ناحية حكاية ما كان يجول بخاطر الجند على اختلاف أنواعهم ونوع عصبيتهم. ويقول فيها إنه لا يريد أن يذكر مناقب الأتراك ويتبعه بمعايب غيرهم، بل يكتفي بذكر المناقب قصدًا إلى الألفة وتوحيد القلوب. ولكنه بسط مناقب الترك وبالغ في إعلاء شأنهم، وأسبغ عليهم - بقلمه السيّال وأسلوبه الواسع- عظمة وأبهة تكفيان في إشعار القارئ أن الترك أعظم جند، وأشجع قوم؛ فهو بهذا الأسلوب الماكر رفع من شأن الترك، ووضع من غيرهم تحت ستار الدعوة إلى الألفة.

حكى في صدر الرسالة حكاية الفتح بن خاقان من أنه سمع رجلًا يَقسم الجند في عهد المتوكل إلى أقسام: خراساني، وتركي، ومولي، وعربي، وبَنَوي[1]. فاعترض عليه الفتح وأبى هذا التقسيم، ودعا إلى أن ينظر إلى الجند كوحدة لا كأجناس، وأن هذا الجند مع اختلاف أجناسه متقارب الأنساب، فالخراساني والتركي متقاربان في الشبه والصقع، وأن القرب بينهما أكثر مما بين العدنانيين والقحطانيين مع أن كلهم عرب - وأن البنويين خراسانيون؛ لأن نسب الأبناء نسب الآباء، وأن الموالي أشبه بالعرب وأقرب إليهم، وهو عرب في المدعَى وفي العاقلة وفي الراية وقد جاء: «مولى القوم منهم» و«الولاء كلحمة النسب»، وأن الأتراك صاروا من العرب لهذا المعنى، لأن الأتراك موالي الخلفاء، فهم موالي لباب قريش. وحكى عن الفتح، أن هذه الأجناس بهذا المعنى يجب أن يكونوا متوازرين متكاتفين محبين للخلفاء إلخ إلخ.

---

(١) في الأصل بنوني ولكن في أثناء الرسالة تأتي نبوي، والظاهر أن صحتها بنوي والبنوي نسبة إلى الأبناء، وهو لفظ كان يطلق في العصر العباسي على ذرية دعاة الدولة العباسية في أول نشأتها.

وهو كلام جيد نظريًّا، ولم يكن واقعًا عمليًّا، فالدعوة الجنسية كانت بالغة أشدّها، والعداوة بينهم متغلغلة في أعماق صدورهم.

ثم حكى الجاحظ عن «الفتح» أن هذا القائل ذكر مناقب لكل جنس من الجنود وألغى ذكر الأتراك، فذكر أن الخراسانيين يفخرون ويقولون: إنا دعاة الدولة العباسية ونحن النقباء والنجباء وأبناء النجباء، وبنا زال ملك بني أمية، ونحن الذين تحملوا العذاب وبُضعوا بالسيوف الحداد، ندين بالطاعة ونقتل فيها، ونموت عليها؛ ونحن قوم لنا أجسام وأجرام، وشعور وهام، ومناكب عظام، وجباه عراض، وسواعد طوال، وأبداننا أحمل للسلاح، ونحن أكثر مادة ونحن أكثر عددًا وعدة، ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا علمت أنّا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان؛ ونحن أرباب النهي وأهل الحلم والحجى، وأهل النجابة في الرأي، والبعد من الطيش، وليس في الأرض صناعة عراقية ولا حجازية، من أدب وحكمة، وحساب وهندسة وارتفاع بناء، وفقه ورواية، نظرت فيها الخراسانية إلا فرعت فيها الرؤساء وبذّت فيها العلماء ...إلخ إلخ.

والعرب يفخرون بالأنساب وبالشعر الموزون الذي يبقى بقاء الدهر، ويلوح ما لاح نجم، وبالكلام المنثور والقول المأثور وتقييد المآثر، إ ذ لم يكن ذلك من عادة العجم -قالوا- ونحن أصحاب التفاخر والتنافر، والتنازع في الشرف والتحاكم إلى كل حَكَم مقنع، وكاهن شجاع، ونحن أصحاب التعاير بالمثالب والتفاخر بالمناقب، نقاتل رغبة لا رهبة. ثم ردّوا على الخراسانيين بأن أكثر النقباء في الدعوة العباسية كانوا من العرب إلخ.

وفخر الموالي بأنهم موضع الثقة عند الشدة، وأن شرف السادة راجع إليهم، إذ

هم منهم، ثم لهم الطاعة والخدمة والإخلاص وحسن النية -قالوا- ونحن أشكل بالرعية، وأقرب إلى طباع الدهم، وهم بنا آنس، وإلينا أسكن، وإلى لقائنا أحنّ، ونحن بهم أرحم، وعليهم أعطف إلخ.

وقال البنوي: إنا أصلنا خراساني وهو مخرج الدولة، ومطلع الدعوة، ولنابعدُ في أنفسنا ما لا ينكر، من الصبر تحت ظلال السيوف القصار، والرماح الطوال، ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا وانقطاع الصفائح، ونحن أهل الثبات عند الجولة، والمعرفة عند الخبرة، مع حسن القدّ، وجودة الخرط، ثم لنا الخطّ والكتابة، والفقه والرواية، ولنا بغداد بأسرها تسكن ما سكنّا وتتحرك ما تحرنا؛ ونحن تربية الخلفاء وجيران الوزراء، وُلِدْنا في أفنية ملوكنا، ونحن أجنحة خلفائنا، أخذنا بآدابهم، واحتذينا على مثالهم.

فأخذ الجاحظ بعدُ يشيد بفضل الترك، فيزعم أن كل الأجناد يرجعون إلى شيء واحد كما قال «الفتح»؛ فالبنوي خراساني، والخراساني مولى، والمولى عربي بالولاء، والأتراك خراسانية (أي بحكم القرب والجوار)، فصار البنوي والخراساني والمولى والعربي والتركي شيئًا واحدًا، فصار فضل التركي إلى الجميع راجعًا، وصار شرفهم زائدًا في شرفهم، ورجا أنه إذا عرف سائر الأجناد ذلك تسامحت النفوس، ومات الضغن وانقطع سبب الاستثقال.

بدأ الجاحظ دفاعه عن الأتراك بحكاية قصّها عن قوم أيام المأمون تذاكروا أي الاثنين أشجع: الخارجي أم التركي؟ وكان الخوارج معروفين بين الناس إذ ذاك بأنهم أشجع جند وأصبر الناس على قتال، وانتهى من هذه القصة بنتيجة هي أن التركي أشجع من الخارجي، لأن الخوارج عرفوا بعشر مزايا في القتال، والتركي يفضلهم فيها جميعًا، لأنه أثبت عزمًا حتى لقد عوّد برذونه ألا ينثني، وهو أصدق رماية؛

فالتركي يرمي الوحش والطير والناس في سرعة وإصابة؛ والخوارج إذا ولّوا فقد ولّوا، ولكن التركي إذا ولّى فهو السمّ الناقع، لأنه يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب بسهمه وهو مقبل؛ والتركي في حال شدته معه كل شيء يحتاج إليه لنفسه ولسلاحه ولدابته، والتركي هو الراعي وهو السائس، وهو الرائض وهو النخّاس وهو البيطار، وهو الفارس، وهو أصبر على السير وعلى الصعود في ذرى الجبال؛ والتركي في بلاده لا يقاتل على دين، ولا على تأويل، ولا على ملك، ولا على خراج، ولا على عداوة، ولا على وطن، وإنما يقاتل على السلب، فكيف إذا انضم إلى ذلك غضب أو تدين، أو عرض له بعض ما يصحب القاتل من العلل والأسباب؛ والأتراك قوم وُضع أصل بنيتهم على الحركة وليس للسكون فيهم نصيب، وهم أصحاب توقّد واشتعال وفطنة، وهم يرون الاكتفاء بالقليل عجزًا، وطول المقام بلادة، والراحة غفلة، والقناعة من قصر الهمة.

ويقول بعد: إن كل أمة امتازت بشيء، فأهل الصين في الصناعات، واليونان في الحكم والآداب، والفرس في المُلْك والسياسة؛ والعرب لم يكونوا تجارًا ولا صناعًا ولا أطباء ولا جُسَّابا، ولا طلبوا المعاش من ألسنة المكاييل والموازين، ولم يحتملوا ذلًّا قط فيميت قلوبهم، ويصغّر عندهم أنفسهم، وكانوا سكان فياف، وتربية عراء، فوجّهوا قواهم إلى قول الشعر، وبلاغة المنطق، وتثقيف اللغة، وتصريف الكلام، وحفظ النسب، والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالآثار، والبصر بالخيل والسلاح، والحفظ لكل مسموع، والاعتبار بكل محسوس، وإحكام شأن المناقب والمثالب - ومزية الأتراك في الحروب، وهم كذلك أصحاب عمد، وسكان فياف، وأرباب مواش، وهم أعراب العجم كما أن هذيلًا أكراد العرب، لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات، ولا الطبّ والفلاحة والهندسة، ولا غراس ولا بنيان، ولا شقّ أنهار، ولا جباية غلاّت، ولم يكن همّهم غير الغزو والغارة والصيد، وركوب الخيل، ومقارعة

الأبطال، وطلب الغنائم، وتدويخ البلاد، لذّتهم في الحرب، وهي فخرهم وحديثهم وسمرهم، وقد اتصفوا بالصفات التي تستتبع النجدة والفروسية، من الكرم وبعد الهمّة وطلب الغاية، والحزم والعزم والصبر.

وبذلك انتهت رسالته الطويلة التي أوجزناها إيجازًا تامًّا.

ومنها نستدل على أن العصبية في هذا العصر كانت شديدة قوية، كل عنصر يعدّد مزاياه، ويُدل بها على من سواه؛ فعربي يفخر بلسانه وسيفه، وفارسي يخفر بسياسته ومُلكه إلخ؛ وأن الأتراك كانت مزّيتهم حسن القتال وما يستتبعه من صفات، فلم يفخروا بعلم ولا بسياسة ولا بسابقة دين ولا شيء من ذلك، فلما كان هذا شأنهم في قوة القتال، غلبوا على كل سلطان.

أراد الفتح بن خاقان والجاحظ أن ينشرا عقيدة الوحدة بين الجنود وتناسى الأجناس، ولكن أنّى لهما ذلك، والدين نفسه لم يستطع أن يمحو هذه العصبية، وعمل الأتراك أنفسهم باستبدادهم وطغيانهم يحيى العصبية ويجعلها وسيلة للدفاع عن النفس، بل وطريقة الجاحظ التي سلكها في مناقب الأتراك من شأنها أن تقوي العصبية لا أن تضعفها!.

كان طبيعيًّا أن يزداد نفوذ الأتراك بقتلهم المتوكل وتنصيبهم المنتصر. وقد حكى الطبري «أن المنتصر عزم على أن يُغْزِي وصيفًا -التركي- الثغر الشامي، فقال أحمد بن الخصيب للمنتصر: «ومن يجترئ على الموالي -الأتراك- حتى تأمر وصيفًا بالشخوص»»[1] - وأمر الأتراك المنتصر أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد من الخلافة خوفًا أن ينتقما -إذ وليا- من قتلة المتوكل، وكان لذلك كارهًا، فدعاهما المنتصر

(١) الطبري: ١١/ ٧٣.

والأتراك وقوف وقال: «أترياني خلعتكما طمعًا في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط، وإذا لم يكن في ذلك طمع فوالله لن يليها بنو أبي أحب إليّ من أنْ يليها بنو عمي، ولكن هؤلاء -وأومأ إلى سائر الموالي؛ يريد الأتراك- ألحّوا عليّ في خلعكما، فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما»[1].

فلما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر، وقبل أن يستخلف خليفة بعده، استُحلف القواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش، وجميعهم أتراك؛ وهؤلاء قد اختاروا أحمد بن محمد المعتصم، ولقّبوه المستعين فبايعه سائر الناس.

ضايق الأتراك المستعين بعد ذلك، وضايقوا الناس حتى ضجّ وضجّوا، ودبّروا المؤامرات لاغتياله، فهرب من سامرا إلى بغداد، فذهبوا إليه يعتذرون، فقال لهم: «أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنعم، ألم ترفعوا إليّ في أولادكم فألحقتهم بكم، وهو نحو من ألفي غلام؟! وفي بناتكم، فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات، وهن نحو أربعة آلاف امرأة؟! وفي المدركين والمولودين، وكل هذا قد أجبتكم إليه، وأدررت لكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة؛ ومنعت نفسي لذتها وشهوتها، كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم، وأنتم تزدادون بغيًا وفسادًا، وتهددًا وإبعادًا»[2].

وهاج أهل بغداد «لما بلغهم مقتل عمر بن عبيد الله الأقطع، وعلي بن يحيى الأرمني، وكانا نابين من أنياب المسلمين، شديدًا بأسهما، عظيمًا غناؤهما عنهم، في

(١) طبري: ١١/ ٧٦.
(٢) طبري: ١١/ ٩٨.

الثغور التي هما بها، وقرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر، مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين، وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء، واستخلافهم من أحبوا استخلافه، من غير رجوع منهم إلى ديانة، ولا نظر للمسلمين، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير»[1].

هذا إلى أن الأتراك أنفسهم انشق بعضهم على بعضهم، وتكونوا أحزابًا: هذا حزب داغر، وهذا حزب بغا ووصيف إلخ، وقتلوا داغرًا، وحارب بعضهم بعضًا.

فلما لم يذعن لهم المستعين، بايعوا المعتز بالله، وانضم إليه أغلب الأتراك، وكان مركزه سامرا؛ وظل أهل بغداد على ولائهم للمستعين وبيعتهم له، ومعه ابن طاهر الفارسي الأصل وقليل من الأتراك، وكانت سنة شديدة على الناس عذبوا فيها عذابًا شديدًا من السلب والنهب والقتال:

وكان من حسن حظ الترك أن غَلبوا أخيرًا، ودخلوا بغداد منتصرين، وخلعوا المستعين ثم قتلوه، فكانت هذه خطوة أخرى في سبيل سيادة الأتراك، وفي ذلك يقول رجل من أهل سامرا وقيل إنها للبحتري:

لله دَرُّ عصابة تُركية ... رَدُّوا نوائبَ دهرهم بالسَّيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمد ... وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وطَغَوْا فأصبح مُلكنا متقسِّمًا ... وإمامُنا فيه شبيهَ الضيف

ومع هذا سرعان ما ضيّقوا على المعتز، وشعر منهم بالشرّ، فكان لا يلتذ بالنوم، ولا يخلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار خوفًا من بغا، وقال: لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي؟ وكان يقول: «إني لأخاف أن ينزل عليّ بغا من

(١) طبري: ١١/ ٨٥.

السماء أو يخرج عليّ من الأرض»[١]. ومن ناحية أخرى عزم المعتز على قتل رؤسائهم، وأعمل الحيلة في فنائهم، فخلعوه وقتلوه.

وقد أكثر الشعراء في ذلك العصر من وصف ما أصاب البلاد من سوء الحال وتحكم الأتراك في الخلفاء، وما عمّ الناس من الفوضى والاضطراب، فقال في ذلك بعض شعراء العصر في مقتل المعتز:

بكـرَ الـتركُ نـاقمين عليـه ... خَلَعَتْـهُ، أَفْدِيـه مـن مخلـوع
قتلـوه ظلـمًا وجَـورًا فـألفَو ... ه كـريم الأخـلاق غـير جـزوع
لم يَهـابوا جيـشًا ولا رَهبـوا الـسـ ... ـيف فَلَهْفِـي عـلى القتيـل الخليـع
أصـبح الـترك مـالكي الأمـر، والعـا ... لَمُ مـا بـين سـامع ومطيـع
ونـرى الله فـيهمُ مالـك الأمـ ... ـر سـيجزيهمُ بقتـلٍ ذريـع

وقال آخر:

قتلـوه ظلـمًا وجَـورًا وغَـدْرًا ... حـين أهـدوْا إليـه حتفًـا مُريحـا
نَـضَّر الله ذلـك الوجـه وجهًـا ... وسَـقَى الله ذلـك الـرُّوح رَوْحـا
أيهـا الـترك تُلَقَّـون للـدهر ... سـيوفًا لا تَـسْتبِلّ الجريحـا
فاسـتعدُّوا للـسيف عاقبـةَ الأمـ ... ـر فقـد جئـتمُ فَعـالًا قبيحـا

وقال آخر:

ألزمـوه ذنبًـا عـلى غـير جُـرْمٍ ... فثـوى فـيهمُ قتـيلًا صريعـا
وبنـو عمـه وعـم أبيـه ... أظهـروا ذلـة وأبـدوا خـضوعا

---

(١) المسعودي: ٢/ ٣٣٦.

openkandle.com

مـــا بهـــذا يـــصحُّ مُلـــك ولا يُغْـــ ـــزَى عـــدو ولا يكـــون جميعـــا

ويقول: عبد الله بن المعتز في أرجوزته التاريخية المشهورة:

وكـــلَّ يـــوم ملـــك مقتـــول أو خـــائف مُـــرَوّعٌ ذليـــل

أو خـــالع للعَقـــد كـــيما يَغْنَـــى وذاك أدنَـــى للـــردى وأدنـــى

وكـــم أمـــير كـــان رأس جـــيش قـــد نغَّـــصوا عليـــه كـــل عـــيش

وكـــم فتـــاةٍ خرجـــت مـــن منـــزِل فغـــصبوها نفـــسَها في المحفِـــل

* * *

ويطلبـــون كـــلَّ يـــوم رِزْقًـــا يرونـــه دَيْنًـــا لهـــم وحَقـــا

كـــذاك حتـــى أفقـــروا الخلافـــة وعَوَّدُوهـــا الرعـــب والمخافـــة

شعر الناس بسوء الحالة العامة من سلطة الأتراك، وحاولوا التخلّص من سلطانهم، وقويت هذه الفكرة عند الخليفة المهتدي، وقد كان شجاعًا قويًا، مثله الأعلى عمر بن الخطاب؛ فظن أنه يستطيع القضاء على سلطة الأتراك، وأن الشعب يؤيده، ولكنه لم ينجح.

لقد أكثر الترك من مصادره الناس في أموالهم، وكان من مصائب الرجل أن يكون غنيًا؛ صادروا الكتّاب وصادروا الأمراء الكبار، وأخيرًا صادروا زوجة المتوكل وهي أمّ المعتز بعد أن قتلوا ابنها، وكان المتوكل سمّاها قبيحة لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافورًا، وكان لها أموال كثيرة، وهربت على مكة، وسُمعت وهي تدعو بصوت عال تقول: اللهَّم اخز صالحًا[1] كما هتك ستري، وقتل ولدي، وشتّت

(١) هو صالح بن وصيف التركي.

شملي، وأخذ مالي، وغرّبني عن بلدي وركب الفاحشة مني[١].

دبّر الأتراك مؤامرة لقتل المهتدي لأنه لم يعجبهم في نزعته. وانتشر الخبر في العامة أنهم قد اتفقوا على خلع المعتدي والفتك به، وأنهم قد أرهقوه، فكتب العامة الرقاع ورموها في الطرق والمساجد مكتوبًا فيها: «يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه، ويكفيه مؤنة ظالمه، ويتمّ النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه، فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه».

ولما وصل خبر المؤامرة إلى المهتدي تحول من مجلسه متقلدًا سيفًا، وقد لبس ثيابًا نظافًا وتطيب، ثم أمر بإدخال هؤلاء الأتراك المتآمرين عليه، فقال لهم: «بلغني ما أنتم عليه ولست كمن تقدمني مثل المستعين والمعتز، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنّط، وقد أوصيت إلى أخي بولدي. وهذا سيفي. والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي، والله لئن سقطت مني شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم. أما دين! أما حياء! أما رِعَيّة! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله، سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم، ومن كان إذا بلغه هذا عنكم دعا بإرطال الشراب فشربها مسرورًا بمكروهكم وحبًّا لبواركم، خبّروني عنكم هل تعلمون أنه وصل إليّ من دنياكم هذه شيء؟ أما أنك تعلم يا بايكباك أن بعض المتّصلين بك أيسر من جماعة إخوتي وولدي؟! تَعَرَّف ذلك فانظر هل ترى في منازلهم فرشًا، أو وصائف أو خدمًا أو جواري أو لهم ضياغ أو غلات؟ سوأة لكم!»[٢]، ولكن ماذا يغني إشهار سيفه، والتهديد بخطبته، وقد أراد أن يضرب الأتراك بعضهم ببعض حتى يخلص منهم

(١) ابن الأثير: ٧/ ٧٠.

(٢) الطبري: ١١/ ١٩٤.

جميعًا؛ ولكنه لم ينجح في هذا أيضًا، ودارت الدائرة عليه فقتلوه.

ومع هذا فقد كان لحركة المهتدي أثر في استرداد البيت العباسي بعض سلطانه، وكان من أسباب ذلك أيضًا انتقال الخليفة من سامرا، وهي حصن الأتراك، إلى بغداد، وفيها عناصر كثيرة تريد أن تحمي الخلافة من شرورهم. ولذلك رأينا سلسلة من الخلفاء بعده يقبضون على كثير من السلطان، ويموتون حتف أنوفهم. فقد تولّى بعد المهتدي المعتمد؛ نعم إنه كان مسلوب السلطان محجورًا عليه. وقال في ذلك أبياته المشهورة:

ألـيس مـن العجائـب أنّ مِـثْلي ... يـرى مـا قَـلّ ممتنِعًـا عليـه
وتُوكَـلُ باسـمه الـدنيا جميعًـا ... ومـا مـن ذاك شيء في يديـه
إليـه تُحمـل الأمـوال طـرًّا ... ويُمنـع بعـضَ مـا يُجْبَـى إليـه

ولكن الذي كان يحجر عليه هذه المرة هو أخوه الموفق، لانصراف المعتمد إلى لهوه وملذاته؛ والموفق في أيامه كان بطلًا، ترك لأخيه المعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، وأمسك هو بزمام الأمر والنهي، وقود العساكر، ومحاربة الأعداء؛ ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء والأمراء، وكبح غير قليل من جماع الأتراك.

فلما جاء المعتضد بن الموفق سار سيرة أبيه، وزاد في رفع شأن الخلافة، والأخذ على يد الأتراك بقدر ما يستطيع،؛ قال الفخري: «كان المعتضد شهمًا عاقلًا فاضلًا، حُمدت سيرته، ولِيَ والدنيا خراب، والثغور مهملة، فقام قيامًا مرضيًا حتى عمرت مملكته، وكثرت الأموال، وضبطت الثغور؛ وكان قوي السياسة شديدًا على أهل الفساد، حاسمًا لمواد أطماع عساكره عن أذى رعيته، محسنًا إلى بني عمه من آل أبي

طالب»[1]. وقد كثرت الفتن والأحداث في أيامه نتيجة للفساد الذي كان قبل أيامه، فجاهد فيها ما استطاع.

وقد نظم فيه «ابن المعتز» ابن عمه قصيدة طويلة هي صورة مصغّرة لنمط الملاحم كالإلياذة والشاهنامه، سدّت بعض النقص في الشعر العربي في هذا النوع؛ بدأها بذّم الأتراك وما جنوا على البلاد، ذكرنا طرفًا منه فيما سبق، ثم عدّد أعمال المعتضد، وما قام به من حروب وما أتى به من إصلاح. وهي تعدّ بجانب مزيتها الأدبية وثيقة تاريخية هامة للأحداث في عهد المعتضد.

واستبشر الشعراء بهمته، فقال ابن الرومي:

هنيئًا بني العباس إنَّ إمامَكم ... إمامُ الهُدَى والناسِ والجودِ أحمدُ

كما بأبي العباس أنشئ مُلككم ... كذا بأبي العباسِ أيضًا يُجدّد

وقال ابن المعتز:

أما ترى مُلك بني هاشم ... عاد عزيزًا بعد ما ذلّلا

يا طالبًا للملك كن مِثْله ... تستوجب المُلك وإلاّ فلا

وعلى الجملة، فقد مات بعد نحو عشرات سنوات من حكمه، خلف فيها الخلافة على حال أحسن بكثير مما كانت منذ وفاة الواثق.

وسار ابنه المكتفي بسيرة أبيه، ولكن الفتن التي بدأت في عهد أسلافه استفحلت، وعظم أمرها، من إسماعيلية، وقرامطة، وفاطمية، وانتهى القرن الثالث الهجري والفتن قائمة، والثورات مشتعلة، وعلى الخلافة المقتدر بن المعتضد، فعادت

---

(١) ص٣٦٢.

الخلافة إلى ضعفها الأول، وعاد الأتراك إلى قوتهم.

ويظهر أن الأتراك والوزراء سئموا من اختيار الخلفاء القادرين الأكفّاء، أمثال المهتدي، والمعتضد، والمكتفي، فأرادوا أن يعدلوا عن هذه السنّة ويولّوا عديم الكفاية، ولذلك طال اجتماعهم وتفكيرهم بعد موت المكتفي؛ وكان من أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز، وهو كفء عالم أديب قادر، فانصرفوا عنه إلى المقتدر، وهو طفل عاجز، فولّوه حتى تتم لهم الرياسة. حكى مسكويه أن وزير المكتفي العباس بن الحسن استشار ابن الفرات فيمن يلي الخلافة، فقال له: «اتّق الله ولا تنصّب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا، ونعمة هذا، وبستان هذا، وجارية هذا، وفرس هذا، ومن لقي الناس ولقوه، وعرف الأمور، وتحنّك وحسب حساب نعم الناس[1]. قال الوزير: فبمن تشير؟ قال ابن الفرات: بجعفر بن المعتضد (هو المقتدر). فقال الوزير: جعفر صبي! قال ابن الفرات: إلا أنه ابن المعتضد: ولِمَ تجيء برجل يأمر وينهي، ويعرف مالنا، وبمن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل، ولم لا تسلّم هذا الأمر إلى من يدعك تدبّره أنت؟».

وحكى الصُّولي «أنه عُهد إليه بتربية الراضي بالله وأخيه هارون، فكان يلقاهما مرتين في الأسبوع وقد رآهما فطنين عاقلين، إلا أنهما خاليان من العلوم. قال الصولي: «فحبّبت العلم إليهما، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة، فتنافسا في ذلك، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه، وقرآ عليّ الأخبار والأشعار». فكان مما قرأه لهما الصولي كتاب «خلق الإنسان» للأصمعي، فوشى الخدم. وقالوا: «إن الصولي يعلّمهما أسماء الفرج والذكر» فاجتهد الصولي في نفي هذه التهمة، وأراهم الكتاب.

---

(١) يشير بهذا القول إلى ابن المعتز.

ثم لما تقدم الصولي في تعليمهما، وتطلع إلى مكافأته على ما عمل، قيل له على لسان أهل القصر: «ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء. وهذا أبوهما قد رأينا كل ما نحب فيه، وليس بعالم»؛ فلما سمع الصولي أتى مصرّا الحاجب وأخبره بما قيل، فبكى، وقال: كيف نفلح من قوم هذه نياتهم[١]؟!

وحكى في موضع آخر، أن الراضي بالله، قبل أن يلي الخلافة، كان يقرأ عليه - على الصولي- شيئًا من شعر بشار، وبين يديه كتب لغة، فجاء خدم من خدم جدته فأخذوا جميع ما بين يديه من الكتب، فجعلوه في منديل، فغضب الراضي، فسكّنت غضبه وقلت: ليس ينبغي أن ينكر الأمير هذا، فإنه يقال لهم إن الأمير ينظر في كتب لا ينبغي أن ينظر في مثلها، فقال لهم الراضي: قولوا لمن أمركم، إن هذه الكتب إنما هي حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر، وحديث سندباد، والسنور والفار[٢].

فترى من هذا كيف كانوا يريدون الحجر على من يرشّح للخلافة لينشأ جاهلًا غرًّا، فينصرف إلى لهوه ولذته، ويترك لهم زمام الأمور والتصرّف في شئون الدولة.

وكان من المؤيدين لتولية هذا الطفل مؤنس الخادم، ومؤنس الخازن، وغيرهما من الأتراك.

نعم كان مع ابن المعتز بعض الأتراك، ولكن الغلبة والقوة كانتا في جانب الذين مع المقتدر، فتم الأمر للمقتدر، وقتل ابن المعتز[٣].

---

(١) انظر الأوراق في أخبار الراضي والمعتز ص٢٦.

(٢) المصدر نفسه ص٦.

(٣) تجارب الأمم: ٥/ ٢، ٣ طبعة مصر.

روي أنه لما اختلف أمر الناس، وبايع بعضهم لابن المعتز، سأل ابن جرير المؤرّخ الكبير، وكان في آخر أيامه، ما الخبر؟ قالوا: بويع ابن المعتز، قال: فمن رشّح للوزارة، قالوا: محمد بن داود، قال: فمن ذُكِر للقضاء، قالوا: أبو المثنّى، فأطرق؛ ثم قال: هذا الأمر لا يتمّ، قيل له: وكيف؟ قال: كل واحد ممّن سمّيتموهم متقدم في معناه، عالي الرتبة، والزمان مدبر، والدنيا مولّية، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال، وما أرى لمدته طولًا[1].

كان المقتدر صبيًّا في الثالثة عشرة من عمره لا يعرف من أمور الدنيا شيئًا، ومع ذلك لقّبوه بالمقتدر! ولما شبّ عكف على لذائذه، وتوفّر على المغنين والنساء، وترك أمور الدولة لغيره وعلى رأسهم مؤنس التركي، فبلغت الحال من بله الخليفة وسوء رجاله أقصى حدّ.

وأخيرًا بعد حكم فاسد دام نحو خمس وعشرين سنة، قتل المقتَدرَ رجل من أصحاب مؤنس، أضجعه فذبحه وسلب ثيابه حتى سراويله، وتركه مكشوف العورة، إلى أن مر به رجل من الأكرة فستر عورته بحشيش، ثم حفر له في الموضع، ودفن حتى عفا أثره[2].

قال المسعودي في المقتدر: «أفضت الخلافة إليه وهو صغير غِرّ تَرِف، لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك، فكان الأمراء والوزراء والكتّاب يدبّرون الأمور ليس له في ذلك حل ولا عقد، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم، فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة فأدّاه ذلك إلى سفك دمه؛ واضطربت الأمور بعده، وزال

(١) تاريخ الخلفاء: ١٥٢.
(٢) تجارب الأمم: ٥/ ٢٣٧.

كثير من رسوم الخلافة[1]... وكانت في أيامه أمور لم يكن مثلها في الإسلام، منها: أنه ولي الخلافة ولم يل أحد قبله من الخلفاء وملوك الإسلام في مثل سنّه، لأن الأمر أفضي إليه وله ثلاث عشرة سنة وشهران وثلاثة أيام؛ ومنها أنه ملك خمسًا وعشرين سنة إلا خمسة عشر يومًا، ولم يملك هذا أحد من الخلفاء وملوك الإسلام قبله؛ ومنها أنه استوزر اثني عشر وزيرًا، فيهم من وزر له المرتين والثلاث، ولم يعرف فيما قبله أحد استوزر هذه العدة؛ ومنها غلبة النساء على الملك والتدبير، حتى إن جارية لأمه تعرف بثَمِل القهرمانة كانت تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة، ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم[2].

ولم تكن خلافة القاهر خيرًا من خلال المقتدر. وأخيرًا اجتمع بعض قواد الجند وقبضوا على القاهر وهو سكران، واستحضروا بختيشوع بن يحيى المتطبّب وسألوه أن يدلّهم على من يُحسن أن يَسمُل، فذكر لهم رجلًا، فأحضر وسمَل[3] عيني القاهر؛ ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء، وقد سملوا بعده الخليفة المتقي واسمه إبراهيم، فقال القاهر:

صرت وإبراهيمُ شيخَي عَمًى ... لابد للشيخين من مُصْدِرِ
ما دام تُورُونَ له إمرة ... مُطاعة فالمِيلُ في المِجْمَرِ

وقد وقف القاهر يومًا – بعد أن سُمل وحبس وبويع غيره ثم أطلق –في جامع المنصور بين الصفوف وعليه مبطنةٍ بيضا– وقال: تصدَّقوا عليَّ فأنا من قد عرفتم[4].

(١) التنبيه والإشراف ٣٧٧.
(٢) التنبيه والإشراف: ٢٧٨.
(٣) سمل العين: فقؤها بحديدة محماة وقلعها. وقد نقلوا هذه العادة عن البيزنطيين.
(٤) كان ذلك في أيام المستكفي ليشنع عليه.

وحدّث أبو الحسن العرُوضي مؤدب الخليفة الراضي، قال: اجتزت في يوم مهرجان بدجلة بدار بَجْكم[١] التركي، فرأيت من الهرج والملاهي واللعب والفرح والسرور ما لم أر مثله؛ ثم دخلت إلى الراضي بالله، فوجدته خاليًا بنفسه قد اعتراه همّ، فوقفت بين يديه، فقال لي: ادْنُ، فدنوت، فإذا بيده دينار ودرهم، في الدينار نحو من مثاقيل، وفي الدرهم كذلك، عليه صورة «بجكم» شاك في سلاحه، وحوله مكتوب:

إنما العزّ فاعلم، للأمير المعظَّمْ ... سيد الناس بَجْكَمْ

ومن الجانب الآخر الصورة بعينها، جالس في مجلسه كالمفكّر المطرق. فقال الراضي: أما ترى صنع هذا الإنسان وما تسمو إليه همته، وما تحدِّثه به نفسه؟! فلم أجبه بشيء، وأخذت به في أخبار من مضي من ملوك الفرس وغيرها، وما كانت تلقي من أتباعها، وصبرهم عليهم، وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فسلا عما عرض لنفسه. ثم قلت: يمتّع الله أمير المؤمنين أن يكون كالمأمون في هذا الوقت حيث يقول:

صِلِ النُّدمان يومَ المِهْرَجان ... بصافٍ من مُعَتَّقة الدِّنان
بكاسٍ خُسْرُوانِيّ عتيق ... فإن العيد عيد خُسْرَوَاني
وجنِّبني الزَّبيبِيّن طرّا ... فشأنُ ذوي الزبيب خلاف شاني
فأشربها وأزعمها حرامًا ... وأرجو عفو ربّ ذي امتنان
ويشربها ويزعمها حلالا ... وتلك على الشقيِّ خطيئتان

فطرب وأخذته أريحية وقال لي: صدقت ترك الفرح في مثل هذا اليوم عجز!

---

(١) في الأصل بحكم وهو خطأ.

وأمر بإحضار الجلساء، وقعد في مجلس التاج على دجلة، فلم أر يومًا كان أحسن منه في الفرح والسرور[١].

هذا في إيجاز تام حال الأتراك من حيث علاقتهم بالخليفة والخلافة وشئونها.

وللأتراك في هذا العصر ناحية أخرى اجتماعية لها أثر كبير في حياة المسلمين، فقد كان لقبض الأتراك على زمام الحكم أثر في دخول كثير منهم في الإسلام وانتشارهم في المملكة الإسلامية. فمسكويه يذكر في حوادث سنة ٣٤٩هـ أنه في هذه السنة أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خِرْكَاه[٢]، والخركاه هي الخيمة التي تسكنها الأسرة، أي أن من أسلم نحو مائتي ألف أسرة، فإذا كان متوسط الأسرة خمسة أشخاص كان مجموع ذلك نحو ألف ألف شخص، ولا شك أن هذا العدد، ومن أسلم قبله، ومن أسلم بعده، في اندماجهم في المسلمين يؤثر أثرًا كبيرًا.

كان هؤلاء الأتراك أقوياء أشدّاء أصحاء كما تستلزمه طبيعة بلادهم، وبداوة معيشتهم. وقد ذكر لنا الجاحظ فيما سبق أن أطلق على الأتراك «أعراب العجم»، ويعني بالأعرابية البداوة، وهذه البداوة تكسبهم قوة في البدن وخشونة في الطبع؛ وقد تجلّى هذا في معاملتهم الناس، فضجّ منهم أهل بغداد في عصر المعتصم. ولكن مرور الأزمان عليهم، واستيلاءهم على البلاد المنعمة المترفة، وكثرة الأموال في أيديهم، حضّرهم، وعلمهم النعيم والبذخ، وحمل بعضهم على العبث بالأخلاق. حكى التنوخي أن شيخًا من التجار كان له على بعض القواد مال جليل يماطله به، ولم يستطع الظلامة إلى الخليفة المعتضد، لأنه كان إذا جاء حجبه القائد واستخف به غلمانه، فدلّوه على خياط في سوق الثلاثاء، فأمر الخياطُ القائد بدفع ما عليه للتاجر

(١) مروج الذهب: ٢/ ٤١١.

(٢) تجارب الأمم: ٦/ ١٨١.

ففعل؛ فعجب التاجر من هذا الذي رأى، وألحّ عليه في السؤال عن سبب خضوع القائد! فقصّ عليه أنه مرّ مرة في الطريق فرأى تركيًّا على داره، وقد اجتازت امرأة جميلة عليه فتعلّق بها وهو سكران ليدخلها داره، وهي ممتنعة تستغيث، وليس أحد يغيثها، وتقول إن زوجي قد حلف بالطلاق ألا أبيت خارج بيته، فإن بيَّتني هذا، أخرب بيتي مع ما يرتكبه مني من المعصية، ويلحقه بي من العار.

قال الخياط: فجئت إلى التركي ورفقت به وسألت تركها، فضرب رأسي بدبوس كان في يده فشجّني وآلمني، وأدخل المرأة داره، فجمعت جمعًا وجئنا فضججنا على بابه، فخرج إلينا في عدة من غلمانه فأوقع بنا الضرب، وذهبت إلى بيتي ولم أزل أفكر في هذه المرأة حتى انتصف الليل، فقلت: هذا التركي قد شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات، فإن أذّنتُ لوقع له أن الفجر قد طلع، فيُطْلِق المرأة فتلحق بيتها قبل الفجر فتسلم من أحد المكروهَين، ولا يخرب بيتها مع ما قد جرى عليها. فخرجْتُ إلى المسجد وصعدت المنارة فأذّنت، وجعلت أتطلّع منها إلى الطريق أترقب خروج المرأة فلم تخرج، وإذا الشارع امتلأ خيلًا ورجالًا ومشاعل، وهو يقولون: من هذا الذي أذّن الساعة؟! ففزعت، ثم صحت من المنارة: أنا أذّنتُ. فقالوا لي: انزل، فأجب أمير المؤمنين. ثم ذُهبَ بي إلى المعتضد، وقص عليه القصة، فأحضر التركي والمرأة؛ فلما تحقق من صحة قولي أمر بردّ المرأة إلى زوجها وأن يتمسّك بها ويحسن إليها، وقال للتركي: كم عطاؤك؟ قال: كذا وكذا. قال: وكم وظائفك؟ قال: كذا وكذا، وجعل المعتضد يعدد ما يصل إليه، والتركي يقرّ بشيء عظيم، ثم قال له: فكم جارية لك؟ قال: كذا وكذا. قال: أفما كان فيهن وفي هذه النعمة العريضة كفاية عن ارتكاب معاصي الله، وخرق هيبة السلطان! ثم أمر به فقتل. قال الخياط: وأمرني المعتضد إذا رأيت مثل هذا العمل أن أؤذّن. وانتشر الخبر فما سألنا أحدًا منهم بعدها إنصافًا إلا

فعل[١].

ورأينا كثيرًا من قواد الأتراك -عند استيلائهم على الدولة- شرهين، وكان مظهر شرههم كثرة مطالبتهم للخلفاء بالأموال من حين لحين؛ فإذا نصبوا خليفة فسرعان ما ينقلبون عليه يطالبونه بالأموال، فإن أعطاهم سكتوا قليلًا ثم عادوا إلى المطالبة وإلا قتلوه؛ ومن أجل ذلك كثر إخفاء المال في سرداب أو حفرة في الأرض، أو بناء حوائط عليه أو نحو ذلك خوفًا من إلحاحهم. نسوق مثلًا لذلك ما فعلوه مع المعتز، «فقد هجم قوادهم عليه وقالوا أعطنا أرزاقنا، فطلب من أمه مالًا فأبت عليه، ولم يكن في بيوت المال شيء، فاجتمع الأتراك حينئذ على خلعه».

ومظهر آخر من إفراطهم في حب المال، وهو ما نقرأ في تاريخ ذلك العصر من كثرة المصادرة للأموال -نعم كان قبل ذلك في العصر العباسي الأول شيء من هذا القبيل، ولكنه قليل؛ أما في هذا العصر فأصبح العادةَ المتبعة. وكان أول مظهر لهذه الكثرة في عهد المتوكل، وهو أول عهد استيلاء الأتراك؛ فقد صادر محمدّ بن عبد الملك الزيات، وأخذ ما في منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان، وكذلك فعل مع أهل بيته؛ وقبض على عمر بن فرج الرُّخَّجي، وكتب في قبض ضياعه وأمواله؛ وغضب على أبي الوزير وأخذ منه ستين ألف دينار؛ وضرب إبراهيم بن الجنيد النصراني حتى أقرّ بسبعين ألف دينار فأخذها منه؛ وعزل يحيى بن أكثم وقبض منه ما كان له ببغداد، ومبلغه خمسة وسبعون ألف دينار؛ وغضب على بختيشوع وقبض ماله. وصادر أموال أحمد بن أبي دؤاد، مع أنه سبب خلافته، واستصفى أمواله وأموال أبنائه، فحمل إليه من ذلك مائة ألف درهم، وعشرون ألف دينار، وجواهر

(١) الحكاية بطولها في نشوار المحاضرة: ١/ ١٥٢، وما بعدها.

بقيمة عشرين ألف دينار[1]. وهكذا افتتح عهد الأتراك بكثرة المصادرات، واستمرت طوال هذا العصر، حتى لم يرحموا قبيحة أم المعتز فسلبوها كل مالها، وكانت خبأته. وكان الخليفة أحيانًا يضطر إلى كثرة المصادرات لتلبية مطالب القواد.

وكان كثير من أمراء البلدان في هذا العصر من الأتراك، كما هو الشأن في مصر؛ فمن سنة ٢٤٢ هجرية وحكام مصر أتراك، وذلك منذ ولّي على مصر يزيد بن عبد الله بن دينار التركي. وقبل ذلك بنحو عشرين عامًا كانت مصر تمنح لحاكم تركي في الغالب يقيم في بغداد، ويستخلف عنه أميرًا يقيم في مصر ويديرها نيابة عنه كأشناس وإيتاخ. واستمرت سيادة الأتراك في مصر طول مدة الطولونيين الأتراك والإخشيديين الأتراك أيضًا، فكان بيد هؤلاء الولاة الأتراك السلطان والقوة والمال.

وهناك لون آخر مما لوّنوا به الحياة الاجتماعية، وهو ما عرف عنهم من جمال ونظافة، فكان ذلك سببًا في كثرة الجواري المماليك الأتراك في قصور الخلفاء والعظماء والأغنياء، حتى إن بعض الخلفاء أنفسهم في هذا العصر كانت أمه جارية تركية؛ فالمعتصم أمه تركية، والمتوكل كذلك أمه خوارزمية، والمكتفي بالله أمه تركية اسمها چيچك، والمقتدر بالله أمه أم ولد قيل تركية وقيل رومية إلخ.

كما اشتهر في بيوت الأمراء جوار تركيات، واشتهرت سمرقند بأنها مركز هام لتجارة الرقيق الأبيض. وقد وصف ابن بطلان في رسالته في الرقيق الجواري التركيات فقال: إن «التركيات قد جمعن الحسن والبياض، ووجوهن مائلة إلى الجهامة، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة، وقدودهن ما بين الربع والقصر، والطول فيهن قليل؛ ومليحتهن غاية، وقبيحتهن آية؛ وهن كنوز الأولاد، ومعادن النسل، قلما يتفق في أولادهن وحش ولا رديء

(١) انظر هذه الأحداث كلها في تاريخ الطبري في خلافة المتوكل.

التركيب، فيهن نظافة ولباقة... لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة... وفيهن أخلاق سمجة، وقلة وفاء».

وتغزل الشعراء في ذلك بغلمان من الأتراك، وكان منهم في القصور ودور العظماء كثيرون، فرووا أنه في وقعة بين عزّ الدولة وعضد الدولة البويهيَّيْن أسر غلام تركي لعز الدولة، فجنّ عليه واشتد حزنه وامتنع من الأكل، وأخذ في البكاء واحتجب عن الناس، وكتب إلى عضد الدولة يسأله أن يرد الغلام إليه، فصار ضحكة بين الناس، وعوتب فما ارعوى لذلك، وبذل في فداء الغلام جاريتين عُوديتين كان قد بذل له في الواحدة مائة ألف، وقال للرسول: إن توقف عليك في ردّه فزد ما رأيت ولا تفكر، فقد رضيت أن آخذه وأذهب إلى أقصى الأرض! فردّه عضد الدولة عليه[1].

وروى أبو إسحاق الصابي أنه كان لمعز الدولة غلام تركي يدعى تكيز الجامدار، أمرد رومي الوجه، منهمك في الشرب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو، ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة إعجابه به، جعله رئيس سَرِية جرّدها لحرب بني حمدان، وكان المهلبي يستظرفه ويستحسن صورته، ويرى أنه من عُدَد الهوى لا من عُدد الوغى، فقال فيه:

ظَبْيٌ يرقّ الماء في ... وَجَناته ويروق عوده

ويكاد من شبه العذارى ... فيه أن تبدو نهوده

ناطوا بمعقد خصره ... سيفًا ومِنْطَقَةً تؤوده

جعلوه قائد عسكر ... ضاع الرعيل ومَن يقوده

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٦٣.

فما أسرع أن كانت الدائرة على هذا القائد[1].

وكان لسيف الدولة الحمداني مملوك تركي جندي اسمه يَمَاك، مات بحلب سنة ٣٤٠هـ فحزن عليه حزنًا شديدًا، وقال المتنبي قصيدة يعزّيه فيها مطلعها:

لا يُحْـــزِنِ اللهُ الأمـــيرَ فـــإنني ... ســـآخذ مـــن حالاتـــه بنـــصيب

وفيها:

لأَبقـــى يَـــمَاكٌ في حـــشاي صـــبابة ... إلى كـــل تُرْكـــي النُّجـــار جَليـــب

ومـــا كـــلُّ وجـــه أبـــيضٍ بمبـــارَك ... ولا كـــل جفـــن ضـــيّق بنَجيـــب

وفيها:

وإن الـــذي أمـــست نـــزارٌ عبيـــدَه ... غنـــيٌّ عـــن اســـتعباده لغريـــب

وقال أبو تمام - وقد أهدى له الحسن بن وهب - غلامًا خزريًّا:

قـــد جاءنـــا الرَشـــأ الـــذي أهديتَـــه ... خِرْقًـــا[2] ولـــو شـــئنا لقلنـــا المركـــبُ

لِدْنُ البنان له لسان أعجم ... خُـــرْس معانيـــه ووجـــه مُعْـــرَبُ

يرنـــو فيـــثلمُ في القلـــوب بطَرفـــه ... ويَعِـــنّ للنظـــر الحَـــرُون فيُـــضْحِب[3]

قـــد صرَّف الرابـــون خمـــرة خـــدّه ... وأظنهـــا بـــالريق منـــه ســـتُقْطَب[4]

---

(١) نزعة الجليس: ٢/ ٥٦.

(٢) الخرق: الفتى الحسن الخلقة.

(٣) النظر الحرون: الشارد. وأصبحت انقاد بعد صعوبة. يريد أنه لو نظر إليه الخليّ لوقع في شراكه.

(٤) صرف: شرب صرفًا. وتقطب: تمزج.

وأحب مهذب الدين الطرابلسي غلامًا مملوكًا له اسمن «تتر»، فبعث مرة هدايا إلى الشريف المرتضى نقيبِ الأشراف مع هذا الغلام، فتوهم الشريف أنه من جملة الهدايا، فأخذه، فساءت حال مهذب الدين وكان شيعيًا، فقال قصيدته المشهورة التي مطلعها:

عـــذّبتَ طـــرْفي بالـــسهر ... وأذبـــت قلبـــي بـــالفِكَر

ومزجـــتَ صـــفْو مـــودّتي ... مـــن بعـــد بُعـــدك بالكـــدر

وفيها:

نفـــسي الفـــداء لـــشادِنٍ ... أنـــا مـــن هـــواه عـــلى خَطـــر

عـــذل العـــذول ومـــارآ ... ه فحـــينَ عاينـــه عَـــذَر

وقد كان مهذب الدين هذا شيعيًا، فهدد الشريفَ بأنه إن لم يرسل الغلام يهجر التشيع ويدخل في مذهب أهل السنة، وفي ذلك يقول:

لئن الشريف الموسوي ... ـــي ابـــن الـــشريف أبي مـــضر

أبـــدى الجحـــود ولم يَـــرُدّ ... إليّ مملـــوكي تـــتر

وَالَيْـــتُ آل أميـــة الطهـــ ... ـــر الميـــامين الغُـــرر

وجحـــدت بَيْعـــة حيـــدر ... وعَـــدلت عنـــه إلى عمـــر[1]

وأخيرًا قال الشاعر:

الله أكـبر لـيس الحُـسن في العـرب ... كـم تحـت لِمّـةِ ذا التركـي مـن عجـب

(١) القصيدة بطولها في تزيين الأسواق لداود الأنطاكي: ٢/ ٢١.

أما من الناحية العقلية -وهي التي تهمنا هنا- فإنا نرى أن ابتداء سلطان الأتراك -وكان ذلك في عهد المتوكل- مصحوب بمظاهر جديدة تخالف كل المخالفة ما كان من قبل، أهمها ثلاثة:

١ - إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدِّثين، فنهى المتوكل عن القول بخلق القرآن والجدال في الكلام، «وأظهر الميل إلى السنّة ونصر أهلها، ورفع المحنة، وكتب بذلك إلى الآفاق، وذلك في سنة ٢٣٤هـ؛ واستقدم المحدّثين إلى سامَرّا، وأجزل عطاياهم وأكرمهم، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية»[١].

وكتب كتابًا على الأمصار يأمر بترك الجدال في القرآن، واضطهد رؤساء المعتزلة وضيّق عليهم؛ فرئيس الاعتزال في مصر وهو محمد بن أبي الليث، جاء كتاب المتوكل بحلق رأسه ولحيته وضربه بالسوط، وحمله على حمار بإكاف وتطوافه الفسطاط، ثم أخرج إلى العراق[٢]؛ وأحمد بن أبي دؤاد رأس الاعتزال في العراق قد غضب عليه المتوكل وعلى ابنه محمد وصادر أموالهما- وما أظن أن الجاحظ المعتزلي نجا من انتكبة إلا لأنه مَرِن، وقد دفع عنه الشر بمرونته، وبما قدّم من رسالته في إعلاء شأن الأتراك، واتصال بالفتح بن خاقان- وفي الوقت نفسه أعلى المتوكل شأن المحدّثين، فكرّم أحمد بن حنبل. وفي عهده جلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصافة يحدث الناس، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس؛ وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور، فاجتمع إليه أيضًا نحو من ثلاثين ألف نفس[٣].

وتبلور عداء الناس للمعتزلة في أبي الحسن الأشعري، فقد ولد بعد المتوكل

---

(١) تاريخ الخلفاء: ١٣٨.

(٢) تاريخ الولاة والقضاة: ٤٦٥.

(٣) الخلفاء: ١٣٨.

بنحو اثنى عشر عامًا، وتثقف ثقافة المعتزلة، ثم عاداهم وأعلن الحرب عليهم، ودعا إلى مذهب كلامي اعتنقه جمهور كبير من المسلمين، كما سيأتي. فالأشعري يمثل الموجه الحديثة التي أتت في عهد المتوكل تهاجم المعتزلة وتنصر المحدّثين وأهل السنة، وهو ليس إلا معبّرًا عن ميول عصره، وصدى لصوت زمانه. رجع عن الاعتزال «ورقي كرسيًا في المسجد الجامع بالبصرة، ونادى بأعلى صوته من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم»[1]. وقال أبو بكر الصيرفي: «كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعري فجحرهم في أقماع السمسم». ولكن الحق أنه ما كان له هذا لولا ما كان من المتوكل من الحجر عليهم، والتنكيل بهم، وتأييد الجمهور -بتأثير المحدّثين- لهذه الحركة.

والواقع أن هذه الحركة، وأعني بها اضطهاد المعتزلة ونصرة المحدّثين، كان لها أثر كبير في حياة المسلمين من ذلك العهد إلى اليوم، فقد لوّنت حياتهم بلون خاص، ظلّوا يحافظون عليه طوال العصور المختلفة.

كانت طبيعة الاعتزال تدعو إلى التفلسف واتجاه العقل في مناح شتى من الحياة، وتحريره من كثير من القيود بعد الإيمان بالله ورسوله، والإيمان بالقرآن، وحصر الحديث في دائرة ضيقة -كما تقدم- وإشعار الإنسان بالمسئولية لأن أعماله صادرة عنه، ولكنهم -مع الأسف- آمنوا بهذه الحرية وأرادوا أن ينفذوا الحرية بالقوة والسلطان، فكانت حرية بالإكراه».

وطبيعة المحدّثين تدعو إلى الوقوف عند النصوص والتزامها، وتضييق دائرة

---

(١) ابن خلكان: ١/ ٤٦٤.

العقل، واحترام الرواية إلى أقصى حدّ، والبحث وراء ألفاظ الحديث ومعانيه وأسانيده؛ وهذا -مع اعترافنا بما له من مزايا- يستتبع نمطًا في التفكير خاصًا يسود فيه تقديس النقل أكثر من تقديس العقل، والتقليد دون الاجتهاد، والوقوف عند النصوص دون التعمّق في مغازيها ومراميها، والنظر إلى الفلسفة والبحث العقلي في الكليات نظر البغض والكراهة، وعدّ المفكر على هذا النمط ملحدًا أو زنديقًا إلخ. وهذا هو الذي ساد عقول كثير من المسلمين منذ خنق الاعتزال، فاحترمت نصوص الكتب أكثر مما احترم نقد العقل، واحترم العالم واسع الاطلاع بالنصوص الدينية واللغوية، أكثر مما احترم قليل الحفظ واسع أفق العقل، وأكرم العالم المقلّد أكثر مما أكرم العالم المجتهد، ونظر إلى المحدث والفقيه بخير مما نظر إلى الفيلسوف والمفكّر الناقد، وضاقت دائرة التفلسف إذا قيست بدوائر العلم في الفروع الأخرى.

كل هذا وأكثر منه كان نتيجة لهذه الحركة. وأعتقد أن الأتراك في ذلك العصر مسئولون لدرجة كبيرة عن هذا؛ فطبيعة عامتهم لا تقبل الجدل الكلامي، ولا كثرة المذاهب الدينية. فالأتراك في جميع عصورهم قلّ أن نرى منهم من اعتنق مذهبًا في الأصول غير مذهب أهل السنّة، وفي الفروع غير مذهب أبي حنيفة، وقلّ أن نرى بين علمائهم خصومة في المذاهب كالتي كنا نراها في العراق بين خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة، ونحو ذلك؛ إنما هو مذهب واحد يسود -غالبًا- ويتوارث. ومع هذا فلسنا ننكر أن فيهم أفذاذًا في سعة النظر وقوة التفكير -كما سيأتي بيانه- ولكن هذا هو النظر العام.

٢- الإيقاع بالشيعة إيقاعًا بالغاً: ففي سنة ٢٣٦هـ «أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يُبْذَر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه؛ فنادى بالناس في تلك الناحية: من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة

حبسناه في المطبق، فهرب الناس وتركوا زيارته، وخرب وزرع. وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أن يتولّى عليًا وأهله بأخذ المال والدم. وكان من جملة ندمائه عبادة المخنّث، وكان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدّة، ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكل والمغنّون يغنون: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين، يحكي بذلك عليًّ عليه السلام، والمتوكل يشرب ويضحك»[1]، «وقيل إن المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء -المأمون والمعتصم والواثق- في محبة عليّ وأهل بيته، وإنما كان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعليّ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي... وعمرو بن فرج الرُّخَّجِي، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة... وابن أترجة، وكانوا يخوّفونه من العلويين، ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حسنوا له الوقيعة في أسلافهم الذي يعتقد الناس علوّ منزلتهم في الدين، ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان، فغطّت هذه السيئة جميع حسناته»[2].

ورووا أن المتوكل كان قد اتصل به يعقوب بن إسحاق النحوي المعروف بابن السكّيت، فسأله المتوكل: أيما أحب إليك، المعتز والمؤيد -ابنا المتوكل- أو الحسن والحسين؟ فتنقّص ابنيه، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام بما هما أهل له، فأمر الأتراك فداسوا بطنه، فحمل إلى داره فمات[3].

وهذه الحوادث وأمثالها في التنكيل بالشيعة قد كان لها مثيل من قبل في العهدين الأموي والعباسي الأول، إلا أنا نريد أن نثبت هنا أن سلطان الأتراك لما ظهر صحبه

---

(١) ابن الأثير: ٧/ ١٩.

(٢) ابن الأثير: ٧/ ٢٠.

(٣) ابن الأثير: ٧/ ٣١.

عودة التنكيل بالشيعة، وكان قد هدأ في عهد المأمون والمعتصم والواثق.

وهذه الظاهرة أيضًا لازمت الأتراك طول عهدهم، فكل تاريخهم مملوء بكراهيّتهم للتشيّع والشيعة، وبالحروب المتصلة بينهم -وهم سنّيّون- وبين الفرس، وهم شيعة.

وكان تصرف المتوكل مع الشيعة سببًا كبيرًا من أسباب تدبير الشيعة للمؤامرات والدسائس والفتن للخروج على الدولة العباسية في بغداد، وإقامة حكومات شيعية مستقلة عن خلفاء العراق كما سيأتي.

٣- المظهر الثالث: اضطهاد اليهود والنصارى. فقد «أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير، وركوب السروج بركب الخشب، وبتصيير زِرَّين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالفٍ لونهما لون الثوب الظاهر عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسَليًّا، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسل، ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي... وأمر بهدم بيعهم المحدَثة، وبأخذ العُشْر من منازلهم، وإن كان الموضع واسعًا صيّر مسجدًا وإن كان لا يصلح أن يكون مسجدًا، صير فضاء. وأمر بأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة، تفريقًا بين منازلهم وبين منازل المسلمين. ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري فيها أحكامهم على المسلمين، ونهى أن يتعلم أولادهم في مكاتب المسلمين؛ ولا يعلّمهم مسلم. وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض

لئلا تشبه قبور المسلمين وكتب إلى عمّاله في الآفاق بذلك»[١]. وقد علّل عمله هذا في كتابه بأنه يريد إعزاز الإسلام، وإذلال الكفر، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين، والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين. وقال علي بن الجهم في ذلك:

العَسَليات التي فَرَّقْتَ بين ذوي الرُّشْدَةِ والغَيْ
وما على العاقل إن يكثروا فإنه أكثر للفَيْ[٢]

نعم، ربما كان هذا نتيجة لسوء العلاقة بين المسلمين والروم، ومهاجمة الروم لبلاد المسلمين من حين لحين، ولكن مهما كان الأمر فهي حالة سيئة تدّل على ضيق العقل، ومخالفته للنظر الواسع الحكيم الذي أمر به الإسلام، ونفذه خلفاء المسلمين الأولون، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب في حكمة ورفق! وكان هذا أيضًا مما أفسد قلوب عدد كبير من الرعية كان يُستخدم من قبل في مصلحة الدولة، وحرّك عددًا منهم للثورة، كثروة نصارى أرمينية على محمد بن يوسف عامل المتوكل على أرمينية وأذربيجان، وقتلهم إياه[٣] ونحو ذلك.

وقد أراد بعض من أتى بعد المتوكل من الخلفاء أن يزيلوا هذه المظاهر أو بعضها، كالذي فعل المنتصر، فقد أراد أن يعيد الاعتزال إلى سلطانه، وأراد أن يحسّن صلته بالبيت العلوي، ولكن لم تطل مدته، ولم يمكنه الزمان ولا حالة الناس من تنفيذ ما أراد.

لم يكن لهذا النوع من الأتراك مدنية وحضارة قديمة، إذ كانوا بدوًا أو أشبه بالبدو، فلم يكن شأنهم عندما اندمجوا في المملكة الإسلامية شأن الفرس؛ فالفرس

(١) تاريخ الطبري: ١١/ ٣٦، وفيه نص هذا الكتاب الذي أرسله المتوكل للأمصار.
(٢) بريد الفيء.
(٣) انظرها في تاريخ ابن العبري ص٢٤٧.

عندما فتحت بلادهم، وأسلم كثير منهم واندمجوا في المملكة الإسلامية، أعطوا وأخذوا، وانتفع بهم المسلمون من ناحية الثقافة: بمثل الكتب التي نقلت من الفارسية إلى العربية، ومثل الألفاظ الفارسية التي نقلت إلى العربية، ومثل نظم الحكم التي أتقنوها في مملكتهم، إلى غير ذلك مما شرحناه قبل؛ كما أخذوا هم عن العرب اللغة والدين. وكان من الفرس رجال مثقفون ثقافات واسعة كالبرامكة، والفضل بن سهل، والحسن بن سهل، وابن المقفع، فأثروا في الثقافة الإسلامية أثرًا كبير بما مزجوا من الثقافتين الفارسية والعربية. أما الأتراك فجاؤوا بشجاعتهم وقوة أبدانهم، وبعاداتهم وتقاليدهم لا بحضارتهم وثقافتهم، فكانوا من ناحية الحضارة والثقافة قابلين لا فاعلين؛ جاؤوا لا يعرفون اللغة العربية فتعلموها في بطء، ولم يتقنها بعضهم إلا بعد ذهاب الجيل الأول منهم، فكانوا يتخاطبون بترجمان.

ويحدثنا الصُّولي أن «بجكم» أمير الأمراء في عهد الراضي والمتقي كان يحسن العربية فهمًا ولا يحسنها كلامًا، «وكان يقول: أخاف أن أتكلم العربية فأخطئ في لفظي، والخطأ من الرئيس قبيح، فلذلك أدع الكلام»[1].

ولم يتقنوها في سرعة ومهارة كما فعل الفرس، فما أتى الجيل الثاني والثالث على الفرس حتى رأيناهم قد أمسكوا بزمام الأدب شعرًا وكتابة وتأليفًا علميًّا، وليس كذلك الأتراك، فقلَّ أن نرى منهم شاعرًا أو ناثرًا بالعربية، وعلى الأخص في الأجيال الأولى من إسلامهم وأسلم الأتراك الأولون فكان إسلامهم ذا لون خاص، فيه نواحي قوة ونواحي ضعف، فهو دين شديد لا يقبل جدالًا ولا مناقشة، ولا يقبل مذاهب مختلفة؛ وعلى العكس من ذلك الفرس، فكان إسلامهم فيه الجدل الشيعي وغير الشيعي، وفيه المقارنة بينه وبين المانوية والزرادشتية والمزدكية، وفي

(١) الصولي، أخبار الراضي والمتقي: ١٩٤.

التزندق أحيانًا والتفلسف أحيانًا، وفيه المذاهب المختلفة التي ظهر أثرها في العراق أيام سلطانهم أما مؤرخ الإسلام عند هؤلاء الأتراك فلا يرى مجال القول فسيحًا كما يراه عند الفرس، ولكل من هذين النوعين من التديّن مزاياه ومضاره، كالفرق بين إيمان العجائز وإيمان الفلاسفة.

أخذت طائفة من الأتراك يتعلمّون اللغة العربية والدين، وربما كان من خير مثل لتعلّم الطبقة الممتازة من الأتراك ما كان من أحمد بن طولون، فقد أخذ يتعلم على حين أن كثيرًا من أمثاله لا يعنون بالتعلّم. قال المقريزي: «نشأ أحمد بن طولون نَشْأً جميلًا غير نشء أولاد العجم (يريد الترك)، فوصف بعلو الهمة، وحسن الأدب، والذهاب بنفسه عما كان يترامى إليه أهل طبقته»[1]، فدرس العربية، وحفظ القرآن وتفقّه على مذهب أبي حنيفة، وكان ذلك كله وهو في بغداد، ثم خرج إلى طرسوس مرارًا، وأخذ الحديث عن كبار المحدثين فيها، «فظهر فضله واشتهر عند الأولياء، وتميّز عن الأتراك»[2]. فكان في هذا من خير الأتراك، بل كان هو نفسه «شديد الإزراء على الأتراك وأولادهم لما يرتكبونه في أمر الخلفاء، غير راض بذلك، ويستقلّ عقولهم، ويقول حرمة الدين عندهم منهوكة»[3].

فإذا كانت ثقافة أحمد بن طولون هذه تعد ثقافة ممتازة بين الأتراك، استطعنا أن نستنتج ضيق ثقافة الأتراك عامة في هذا العصر.

ومع هذا فإنا نرى بعض الأتراك من أوائل هذا العصر وبعده نبغوا في فنون مختلفة على قلة فيهم.

---

(١) الخطط: ١/ ٣١٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) النجوم الزاهرة: ٣/ ٤.

فنرى مثلًا «الفتح بن خاقان» التركي قال فيه ابن النديم: «كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب، وكان من أولاد الملوك، واتخذه المتوكل أخًا، وكان يقدمه على جميع أولاده، قتل مع المتوكل ليلة قتل بالسيوف لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ». وكانت له خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسنًا، وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء الكوفيين والبصريين؛ وروى المبرد شيئًا من شعره- وكان يتعشّق غلامًا له اسمه شاهك، وله فيه أشعار، منها:

أشَاهِكُ، ليلي مذ هجرتَ طويل ... وعيني دمًا بعد الدموع تسيل

وبي منك -والرحمنِ- ما لا أطيقه ... وليس إلى شكوى إليك سبيل

أشَاهِكُ لو يُجْزَى المحِبُّ، بودّه ... جَزَيْتَ ولكن الوفاء قليل

ويروى له:

وإني وإيّاها لكالخمر، والفتى ... متى يستطع منها الزيادة يَزْدَدِ

إذا ازددتُ منها ازددت وَجدًا بقربها ... فكيف احتراسي من هوًى متجدِّد

وقد روي له في كتب الأدب أبيات من هذا القبيل، وجمل ظريفة وأجوبة سديدة تدل على منزلته في الأدب[1]. وهو الذي قدم له الجاحظ رسالته في مدح الأتراك التي تقدم وصفها.

ونبغ من الأتراك أبو نصر الفارابي الفيلسوف الإسلامي الكبير، وأستاذ كل فيلسوف إسلامي بعده، فإنه من فاراب، وهي مدينة من مدن الترك نبغ منها جماعة كثيرة من العلماء. ونبوغ الفارابي من بين الأتراك مفخرة كبيرة لهم، فقد عني بفلسفة أرسطو، وأخرجها للمسلمين في شكل جديد، وكان له فضل على كل من اشتغل

(١) انظر معجم الأدباء: ٦/ ١٦ وما بعدها.

بالفلسفة من المسلمين بعده؛ فظهوره من الترك رجّح من كفّتهم وكانت شائلة، وأثقل ميزانهم وكان خفيفًا. وسيأتي بسط لقيمته وفلسفته في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله، وقد مات بدمشق سنة ٣٣٩هـ.

كما نبغ من الأتراك في القرن الرابع إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي أيضًا، صاحب كتاب «الصحاح» من أهم كتب اللغة وأصولها؛ كان إمامًا في علم اللغة والأدب، كما كان يضرب به المثل في جودة الخط.

أخذ علم العربية عن أشهر علماء العراق، مثل أبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي، ثم سافر إلى الحجاز يأخذ اللغة عن أهلها بالسماع والمشافهة، وطوّف في بلاد ربيعة مضر، وحقق ما يشك فيه مما يرويه العلماء، فيقول -مثلًا-: سألت أعرابيًا بنجد من بني تميم، وهو يستقي، وبكرته نَخِيس، فوضعت إصبعي على النِّخَاس[1] فقلت: ما هذا؟ وأردت أن أتعرّف منه الخاء من الحاء، فقال: نِخَاس بخاء معجمة، فقلت: أليس قال الشاعر:

وبَكْـــــرة نِحاسُـــــها نُحَـــــاس

فقال: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

فلما استكمل دراسته ومشافهته وضع في اللغة كتابه «الصحاح» الذي يعد -بحق- من أسس كتب اللغة.

وكما اجتهد في تصحيح الألفاظ وضبطها كان له الفضل في اختراع الطريقة التي

(١) النخاس: شيء يلقمه خرق البكرة إذا اتسعت وقلق محورها، ويقال بكرة نخيس اتسع ثقب محورها فنخست بنخاس، فيظهر أن بعض علماء اللغة رواها بالحاء المهملة، فحققها الجوهري بالخاء المعجمة.

ألّف عليها كتابه، وحذا حذوه فيها صاحب «القاموس» و«لسان العرب» وغيرهما من حصر الكلمات في أبواب حسب أواخرها، وتقسيم الأبواب إلى فصول حسب أوائلها؛ وكانت كتب اللغة قبله ترتّب ترتيبًا مهوّشًا، فتذكر الكلمة ثم يذكر مقلوبها، كما فعل صاحب كتاب «العين» «والجمرة»، وقد مات نحو سنة ٤٠٠ هـ[1].

وعلى الجملة، فلئن كان أكثر العنصر التركي في المملكة الإسلامية إنما يمتاز بالجندية والخشونة مع ضعف الثقافة؛ فقد نبغ منهم علماء في فروع مختلفة حصّلوا ما كان من الثقافة في عصرهم، وابتكروا بعقولهم.

العنصر الفارسي:

لم يهدأ الفرس منذ رأوا الأتراك تحتل مراكزهم في الدولة العباسية وتستبدّ بالسلطان دونهم، وتقصيهم عن أماكنهم. لقد كان الفرس في العصر العباسي الأول هم عماد الدولة، وبيدهم تصريف شئونها، وكان الخليفة يعتمد عليهم في أهم الأمور، وهم يحتفظون له بمظهر الأبّهة والجلالة، ثم ينشرون سلطانهم؛ فإذا أحسّ الخليفة منهم استبدادًا أوقع بهم، كما فعل الرشيد بالبرامكة، والمأمون بابن سهل، ولكنهم سرعان ما يستردون نفوذهم. فلما جاء الأتراك أبعدوهم عن منزلتهم، وغَلبوا على الخليفة دونهم؛ فانكمش الفرس على حنق، ولعبت بهم العصبية الفارسية، وأخذوا يدسّون الدسائس ويدبّرون المؤامرات، ويحضّنون أنفسهم بالرجال والسلاح، ويرمون إلى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها -وخصوصًا بلادهم الفارسية- والاستقلال بها عن خلفاء بغداد، فإذا سنحت لهم فرصة بعد فليستولوا على العراق وعلى الخليفة، وليتسلّطوا هم عليه، ويقضوا على سلطة الأتراك، وكذلك كان.

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت: ٢/ ٢٦٦.

كانت هذه العصبيات تلعب في عقول الفرس والترك، كل يريد الغلبة ويريد القضاء على صاحبه؛ وكانت بغداد ساحة في كثير من الأوقات للقتال بين الديالمة والأتراك. ولعلّ خير ما يمثل هذا ما روى الصُّولي في حوادث سنة ٣٢٣ من أن «مرداويج الفارسي الأصل (أمير الري وطبرستان، ومؤسس الدولة الزِّيَارِيّة) جعل عسكره صنفين: صنف منهم جِيل وديلم[١]، وهم خواصه، وأهل بلده الذين فتح بهم الري ونواحيها؛ ومنهم صنف أتراك وأهل خراسان؛ ثم استخصّ نفرًا من الأتراك، فوجِد الديلم من ذلك، وعاتبوه عليه، فقال: إنما اتخذت الأتراك لأقيكم بهم، وأقدّمهم يحاربون بين أيديكم، وأنت خاصتي وأنا بكم ولكم. فبلغ ذلك الأتراك، فأجمع رأيهم على قتله، فأوصوا الغلمان الصغار الذين في خدمته، ووكّدوا عليهم بالتركية أن يفتكوا به، فقتلوه في حمام؛ وجاءهم الذين واطئوهم على ذلك وأخرجوهم من الدار. وركبوا دوابه وساروا فاضطربوا، فقالوا: نجعل علينا رئيسًا، فرضوا ببَجْكَمْ، وأخذوا من داره مالًا عظيمًا، وآنية فضة وذهب. وكان (أي مرداويج) قد تكبّر وتجبّر، ووضع التاج على رأسه مكلّلًا بأحسن الحب والياقوت، وجلس على سرير فضة حواليه ذهب، وكان مرصّعًا بجوهر، وقال: «أنا أرُدّ دولة العجم، وأبطل دولة العرب»[٢].

نجح الفرس إلى حد كبير في اقتطاع أجزاء من الدولة والاستيلاء عليها، واستبدادهم بها، وقصر سلطة الخليفة على المظهر الإسميّ؛ فمن قديم استولى

---

(١) الجيل: سكان جيلان، وهي اسم بلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، والنسبة إليها جيلي وجيلاني، والعجم ينطقونها بالكاف. والديلم اسم يطلق على القسم الجبلي من جيلان وعلى سكان هذا القسم أيضًا. ولم يكن بنو بويه من الديلم، ولكن كان الديالمة أنصارهم، ولهذا لقبت دولتهم بالديلمية والبويهية.

(٢) أخبار الراضي والمتقي: ٦٢.

الطاهرية على خراسان (٢٠٥ - ٢٥٩)؛ والصَّفَّارية على فارس (٢٥٤ - ٢٩٠)، والسامانية على فارس وما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩)، والزِّيَارية على جرجان (٣١٦ - ٤٣٤)، ثم دولة بني بويه الفارسية أيضًا (٣٢٠ - ٤٤٧)، فقد استولوا على فارس ثم على العراق، وأخضعوا الخليفة لأمرهم، وأزالوا ولاية الترك عليه، وأقاموا سلطانهم، فكان شأن الخليفة منهم شأنه مع الترك قبلهم، مظهر ولا عمل، ولقب ولا أمر ولا نهي.

والواقع أن سلوك البويهيين الفرس مع الخلفاء لم يكن كسلوك آبائهم الفرس مع الخلفاء في العصر العباسي الأول. لقد كان الأوّلون من الفرس يأتمرون بأمر الخليفة، ويرعون ولاءهم له وطاعتهم إياه، فلما جاء خلفهم من بني بويه لم يرعوا ولاء ولا قلّدوا سلفهم، إنما قلّدوا الأتراك في التنكيل بالخليفة والاستهانة به، واستقلوا ضعفه فلم يعلوا شأنه بل زادوه ضعفًا.

ففي سنة ٣٣٤هـ سار معز الدولة بن بويه من الأهواز إلى بغداد في خلافة المستكفي فملكها، ومنحه المستكفي إمرة الأمراء، «وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة، وعقد له لواء، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه ركن الدولة، ولقب أخاه الآخر عماد الدولة، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم»[1].

فما أن استتبّ أمر معز الدولة ببغداد وقوي أمره حتى حجر على الخليفة المستكفي، وقدّر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقته.

وأوجس معز الدولة خيفة من المستكفي، فدخل معز الدولة عليه فوقف والناس وقوف على مراتبهم، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة فمد يده إليهما ظنًا

(١) الفخري: ٣٣٤.

أنهما يريدان تقبيلها، فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجرّاه بعمامته؛ وهجم الديلم على دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها فلم يبق منها شيء. ومضى معز الدولة إلى منزله، وساقوا المستكفي ماشيًا إليه وخُلع وسملت عيناه، وولوا المطيع لله خليفة، وقرر له معز الدولة كل يوم مائة دينار فقط لنفقته.

وكان معز الدولة يخرج للقتال ومعه المطيع كأسير - ولما ماتت أخت معز الدولة نزل المطيع إلى داره يعزيه.

ومات معز الدولة فأقيم ابنه باختيار مكانه، فكان مع المطيع كأبيه، وزاد على ذلك أنه صادر المطيع، فقال المطيع: أنا ليس لي غير الخطبة، فإن أحببتم اعتزلت، فشدّد عليه باختيار حتى باع قماشه، وأخذ منه أربعمائة ألف درهم. وأخيرًا خلع المطيع نفسه، وولّي ابنه الطائع.

فاستجمع الأتراك قوتهم، وتجمعوا حول سُبُكْتِكِين التركي، وتجمع الديلم والفرس حول معز الدولة؛ فقدم عضد الدولة البويهي بغداد لنصرة عز الدولة على سبكتكين فتمّ لعضد الدولة النصر، وملك بغداد. وأخيرًا خلع الطائعُ على عضد الدولة خلعة السلطنة، وتوّجه بتاج مجوهر، وطوّقه وسوّره وقلّده سيفًا، وعقد له لواءين بيده، أحدهما مفضّض على رسم الأمراء، والآخر مذهّب على رسم ولاة العهود، ولم يعقد هذا اللواء الثاني لغيره قبله، وكتب له عهدًا وقرئ بحضرته.

وفي سنة ٣٦٨هـ أمر الطائع أن يضرب الدبادب[1] على باب عضد الدولة في وقت الصبح والمغرب والعشاء، وأن يخطب له على منابر الحضرة[2] وزاد في ألقابه.

---

(١) الدبادب: الطبلخانات.

(٢) تاريخ الخلفاء: ١٦٣.

وجمع الطائع رجال الدولة ودخل عضد الدولة على الطائع وقبّل الأرض بين يديه، ثم قبّل وجلّ الطائع، ثم أعلن الطائع إسناد الأمور كلها إلى عضد الدولة، فقال له: «قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله إليّ من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها، وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي وأسبابي»؛ فقال عضد الدولة: «يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته».

وفي سنة ٣٧٠هـ خرج عضد الدولة من همذان يريد بغداد، فخرج الخليفة الطائع للقائه ولم تجر العادة بذلك.

بل قد جرى خلاف بين الطائع وعضد الدولة فقطع عضد الدولة الخطبة للطائع في بغداد وغيرها، واستمر ذلك نحو شهرين، ثم سوّي الخلاف وأعيدت الخطبة للطائع.

بل طمع عضد الدولة في الخلافة لنسله، فزوّج الطائعَ ابنته وعقد العقد بحضرة الطائع لله وبمشهد من أعيان الدولة؛ وكان الوكيل عند عضد الدولة أبا علي الفارسي النحوي، والذي خطب خطبة الزواج القاضي أبا علي المحسِّن التنوخي، وكان المهر مائة ألف دينار ورمى عضد الدولة بذلك أن يرزق الطائع ولدًا من ابنته فيولَّى العهد وتصير الخلافة في بيت بني بويه، ويصير الملك والخلافة في الدولة الديلمية[1].

وأخيرًا بعد كل هذا لم يرض البويهيون عن الطائع، فإن بهاء الدولة البويهي احتاج إلى مال فدبّر خلع الطائع وأخْذَ أمواله، فأرسل إلى الطائع يسأله الإذن في الحضور ليجدّد العهد به، فأذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة؛ فدخل بهاء

(١) انظر تجارب الأمم: ٦/ ٤١٤.

الدولة ومعه جمع كثير، فلما دخل قبّل الأرض وأجلس على كرسي، فدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبوه وأنزلوه عن سريره وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد، وأخذوا ما في داره، ونهب الناس بعضهم بعضًا. ثم أمروه أن يخلع نفسه ففعل بعد أن نزل للبويهيين عن كل شيء.

وقد كان الشريف الرضي حاضرًا في المجلس الذي قبض فيه على الطائع، وقد خاف أن يعيد الفرس تمثيل دور الترك مع المتوكل فأسرع في الخروج، وكان أول خارج من الدار، ومكث من مكث من القضاة والأشراف فسلبوا ثيابهم وامتهنوا، وفي ذلك يقول قصيدته التي مطلعها:

لواعدُ الشوق تُخطيهم وتُصميني ... واللوم في الحب ينهاهم ويغريني

وفيها يقول:

اعجبْ لمُسْكة نفسي بعدما رُميتْ ... من النوائب بالأبكار والعُون

ومن نجائيَ يوم الدار حين هوى ... غيري ولم أخلُ من حزم ينجّيني

مرقت منها مروق النجم منكدِرًا ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني

وكنتُ أول طلّاع ثنيَّتها ... ومن ورائي شرٌّ غير مأمون

من بعدما كان رب الملك[1] مبتسمًا ... إليّ أدنوه في النجوى ويدنيني

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العزّ والهُون

ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني!

هيهات أغترّ بالسلطان ثانية ... قد ضلّ ولّاج أبواب السلاطين

(١) يعني الخليفة الطائع.

وجاء القادر بالله بعد الطائع فظل سلطان بني بوية على الخليفة كما كان، قال الذهبي: «في سنة ولايته عقد مجلس عظيم حَلف فيه القادر وبهاء الدولة (البويهي) كل منهما لصاحبه بالوفاء، وقلده القادر ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة».

من كل هذا نرى أن البويهيين من الفرس سلكوا مع الخلفاء ما سلكه الأتراك من قبلهم، بل زادوا عليه أحيانًا؛ ولكن أكبر التبعة تقع على الترك فإنهم هم البادئون بانتهاك حرمة الخلافة، فلم يكن من اليسير بعدُ إعادة ما لها من جلال.

وزاد الأمرَ سوءًا في عهد البويهيين النزاع بين الشيعة والسّنّة؛ فقد كان الخليفة سنيًّا، والبويهيون شيعيين، فاختلفت المظاهر وكثر النزاع. ففي سنة ٣٥١هـ في عهد المطيع -مثلًا- كتبت الشيعة ببغداد على أبواب المساجد بلعْن معاوية، ولعن من غصب فاطمة حقها من فَدَك ومن منع الحسن أن يدفن مع جدّه، ولعن من نفى أبا ذر، فمحاه أهل السنة بالليل فأراد معز الدولة أن يعيده فأشار عليه الوزير المهلبي أن يكتب مكان ما محي: لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصرحوا بلعن معاوية فقط.

وفي سنة ٣٥٢هـ ألزم معز الدولة الناس يوم عاشوراء بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ، ونصبوا القباب في الأسواق، وعلقوا عليها المسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن في الشوارع ويقمن المأتم على الحسين؛ وهذه أول مرة نيح فيها على الحسين ببغداد، واستمر هذا سنين. وفي ثاني عشر ذي الحجة من هذه السنة عمل عيد غدير خُمّ، وضربت الدبادب.

وفي سنة ٣٩٨هـ، وقعت فتنة بين الشيعة وأهل السنة في بغداد، فأرسل الخليفة القادر الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة وهكذا.

وتعصَّب بعض شعراء الفرس في ذلك العهد لفارسيتهم، ومن أشهر هؤلاء مهيار الديلمي، فترى ديوانه قد ملئ بالتهنئة بيوم النيروز، ويوم المهرجان، وبمراسلة بعض البويهيين للقدوم بغداد والاستيلاء عليها، والعصبية الفارسية من مثل قوله:

أعْجِبت بي بين نادي قومها ... «أمُّ سعد» فمضت تَسْأل بي

سرَّها ما علمت من خُلقي ... فأرادت علمَها ما حسبيّ

لا تخالي نسبًا يخفضني ... أنا من يُرضيكِ عند النسب

قوميَ استولوا على الدهر فتى ... ومشَوْا فوق رءوس الحقب

عمَّموا بالشمس هاماتِهمُ ... وبنوا أبياتهم بالشهب

وأبي كسرى على إيوانه ... أين في الناس أبٌ مثل أبي؟

قد قبست المجد من خير أبٍ ... وقبست الدين من خير نبي

وضممت الفخر من أطرافه ... سؤدد الفُرس ودين العرب

وقد شرحنا أثر الفرس الاجتماعي في «ضحى الإسلام»، غير أننا نذكر هنا أن هذه الحروب بين الترك والبويهيين الفرس، وبين البويهيين بعضهم مع بعض، أثّرت كثيرًا من الخراب في العراق وما حولها، حتى جاء عضد الدولة فاستقرت الأمور بعض الاستقرار، ومكنّه ذلك وحبّه للعمران أن يصلح بعض ما خرب.

قال مسكويه: «وكان ببغداد أنهار كثيرة... وكان منها مرافق للناس لسقي البساتين ولشرب الشَّفَة في الأطراف البعيدة من دجلة، فاندفنت مجاريها، وعفت رسومها، ونشأ قرن بعد قرن من الناس لا يعرفونها، واضطر الضعفاء إلى أن يشربوا مياه الآبار الثقيلة، أو يتكلفوا حمل الماء من دجلة في المسافة الطويلة، فأمر (عضد

الدولة) بحفر عمدانها ورواضعها، وقد كانت على عمدانها الكبار قناطر قد تهدّمت وأهمل أمرها، وقلّ الفكر فيها، فربما انقطعت بها السبل، وربما عمّرتها الرعيّة عمارة ضعيفة على حسب أحوالهم، فلم تكن تخلو من أن تجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون، فبنيت كلها جديدة وثيقة، وعملت عملًا محكمًا. وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه، لاسيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه، وتزاحم الناس عليه، فاختيرت له السفن الكبار المتقنة، وعرّض حتى صار كالشوارع الفسيحة، وحصّن بالدرابزينات، ووكل به الحفظة والحراس»[1]!

كما أعاد الاطمئنان إلى أهل الذمة، وأذن للوزير نصر بن هارون في عمارة البِيَع والديرة، وإطلاق الأموال لفقرائهم.

كما أنشأ في بغداد سنة ٣٧١هـ، بيمارستانًا للمرضى سمي بعده البيمارستان العضدي، وأحضر له كل ما يلزم من الأدوية والآلات، ورتب له أربعة وعشرين طبيبًا، منهم الجراحون والكحالون والمجبّرون، وكان فيه دراسة للطب أيضًا، وممن كان يدرس فيه إبراهيم بن بكس[2].

وبعد نحو مائتي سنة من بنائه زاره ابن جبير الرحّالة، وقال: «إنه على نهر دجلة، وتتفقّده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، ويطالعون أحوال المرضى به، ويرتّبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه، وبين أيديهم قَوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت، وجميع مرافق المساكن الملوكية، والماء يدخل إليه من «دجلة»، وعلى الجملة فكان مستشفى كبيرًا ومدرسة للطب، ولكن عاد الأمر بعده

(١) تجارب الأمم: ٦/ ٤٠٦.

(٢) ترجم له طبقات الأطباء.

إلى الفساد والخراب.

أما الحركة العقلية والأدبية في دولة بني بويه، فبلغت الغاية في التحصيل والإنتاج، وسنتكلم فيها في محلها من هذا الكتاب إن شاء الله.

عنصر العرب:

بجانب هذا النفوذ التركي والنفوذ الفارسي، كان هناك النفوذ العربي، وأظهر ما كان ذلك في الشام والجزيرة، فالعرب الذين هاجروا من جزيرة العرب إلى الشام والعراق كانوا -دائمًا- قوة سياسية تحسب الخلفاء حسابها. نعم إنهم كانوا كل شيء في العهد الأموي وضعف سلطانهم في العهد العباسي، ولكنهم كانوا في كل الأحوال قوة لا يستهان بها. ولما ضعفت القوة المركزية في بغداد شرعت هذه القبائل الهائمة في صحراء الشام ووادي الفرات تحطّ رحالها، وتنشئ مستعمرات ثابتة، وتحتل المدن والقلاع، وتكوّن دويلات -فكوّنت قبيلة تَغْلِب دولة الحَمْدانيين في الموصل وحلب (٣١٧هـ - ٣٩٤هـ)، وكوّنت قبيلة كِلاَب دولة المِرْداسيين في حلب (٤١٤- ٤٧٢)، وكوّن بنو عُقَيل العقيليين في ديار بكر والجزيرة (٣٨٦هـ - ٤٨٩هـ)، وكوّن بنو أسد دولة المَزْيَديين في الحِلّة (٤٠٣هـ - ٥٤٥هـ).

وهؤلاء العرب مع استيلائهم على المدن والقلاع لم ينبذوا عاداتهم القومية من البداوة وما إليها، واعتزازهم ببداوتهم واحتقارهم لأهل الحضر، ومن طريف ما يروى في ذلك أن قرواشًا العقيلي صاحب الموصل (من الدولة العقيلية). قال مرة: «ما في رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم، وأما الحاضرة فلا يعبأ الله بهم».

وأهم هذه الدول العربية التي تجلّت فيها العصبية العربية، واشتبكت مع العصبية التركية والفارسية هي دولة بني حمدان التغلبية؛ فقد عظم نفوذها بالموصل

وحلب، وأرادت الاستيلاء على بغداد وطرد النفوذ التركي والفارسي، واستخلاص الخليفة لهم، وجرت في ذلك سلسلة حروب طويلة.

فالخليفة المتقي بالله، احتمى بناصر الدولة بن حمدان وقلّده إمرة الأمراء، وخلع عليه وعلى أخيه سيف الدولة بن حمدان، ودخل ناصر الدولة بغداد باحتفال عظيم. ولكن ثورة الأتراك على رأسهم «توزون» تغلّبت على ابن حمدان، وولّي الخليفة إمرة الأمراء لتوزون، واستمر العداء والقتال بين العرب وعلى رأسهم ابن حمدان، وبين الترك وعلى رأسهم توزون.

فلما استولى البويهيون الفرس على بغداد لم ينقطع الخلاف والقتال بين الحمدانيين والبويهيين. ولما رأى ناصر الدولة بن حمدان استيلاء معز الدولة على بغداد وسلبهم جميع حقوق الخليفة، جهّز جيشًا لقتال البويهي، وساعده على ذلك فرق من الجيش التركي، ودام القتال طويلًا؛ وتقدم الحمدانيون إلى بغداد واستولوا على جانبها الشرقي، وأخيرًا انهزم ناصر الدولة الحمداني وعاد إلى مقرّه.

وكذلك اشتبك الحمدانيون في قتال مع البويهيين أيام عضد الدولة فهزم الحمدانيون أيضًا.

وكانت حياة بني حمدان، مظهرًا من مظاهر الحياة البدوية المتحضّرة: حب للحرب، واستبداد السادة بالرعية، وكرم ومروءة، وشهامة ونجدة، وعصبية للعربية ضد الفرس والترك، وعصبية للقبيلة ضد بني كلاب وبني عقيل، وعصبية للإسلام ضد الروم. وصف الأزدي سيف الدولة الحمداني فقال: «كان معجبًا برأيه، محبًا للفخر والبذخ، مفرطًا في السخاء والكرم، شديد الاحتمال لمناظريه، والعجب بآرائه، سعيدًا مظفرًا في حروبه، جائرًا على رعيته، اشتد بكاء الناس عليه ومنه».

ظهرت عصبية الحمدانيين لعربيتهم في قتالهم المتواصل للترك وللفرس في العراق، وتغنّي شعرائهم كالمتنبي في الاعتزاز بعربيته وعربيتهم، فيقول وقد تساءلوا عن أيهم أفضل: العرب أم الأكراد؟:

إن كنتَ عن خير الأنام سائلًا ... فخيرُهم أكثرهم فضائلا

مَن أنت منهم يا همامُ وائلا ... الطاعنين في الوغى أوائلا

والعاذلين في الندى العواذلا ... قد فضلوا بفضلك القبائلا

ويقول ويأسف لحكم غير العرب العرب:

وإنما الناس بالملوك وما ... تفتح عُرْبٌ ملوكها عَجَم

لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذمم

بكل أرض وَطَئتها أمم ... تُرعى بعبدٍ كأنها غنم

ويدّل على عصبيتهم القبلية ما فعله سيف الدولة من إيقاعه ببني كلاب وبني عقيل، وقُشَير وبني عجلان، وبطشه ببني حبيب حتى خرجوا بذراريهم إلى الروم في اثنى عشر ألف فارس وتنصّروا بأجمعهم، ووقوف المتنبي بجانبه يشيد بذكره في حروبه هذه، فيقول حينما أوقع ببني كلاب قصيدته المشهورة التي مطلعها:

بغيرك راعيًا عَبِثَ الذئابُ ... وغيرك صارمًا ثَلَم الضِّراب

ويذكر إيقاعه ببني عقيل وقشير، وبني العجلان في قصيدته التي مطلعها:

تذكرت ما بين العُذَيب وبارق ... مجرّ عوالينا ومجرَى السوابق

ويدل على عصبيتهم الإسلامية قتالهم للروم، وصدّهم عن بلاد الإسلام وحمايتهم للثغور، حتى غزا سيف الدولة الروم أربعين غزوة، ولولاه لاستولوا على

الشام في غفلة العباسيين. وقد رووا أنه جمع من الغبار الذي أصابه في غزواته ما صنع منه لبنة بقدر الكفّ أوصى أن يوضع خدّه عليها في لحده.

بين هذه العصبيات الثلاث التركية والفارسية والعربية تقسمت المملكة الإسلامية، ولأجلها وقعت الحروب وسادت الفتن، فلا تكاد تخلو سنة من حروب بين فرس وترك وعرب، وأحيانًا ينضم بعض إلى بعض؛ فقد كان في جيش بني حمدان أحيانًا فرق من الجيش التركي، كما كان مع بعض بني بويه بعض الأتراك، والبلاد تخرب من القتال، والروم ينتهزون فرصة اشتباك أمراء المسلمين بعضهم مع بعض للإغارة على الثغور الإسلامية والتنكيل بها.

وقد اتخذت العصبيات في هذا العصر شكلًا واضحًا غير الذي كان في العصر العباسي الأول، فقد كان قبلُ عصبية فارسية وعصبية عربية، ولكنها كانت تعمل في الخفاء غالبًا، وكانت قوة الخلفاء تحول دون الطغيان، فإذا أحس الخليفة طغيانًا من الفرس نكل بهم، وردّهم إلى حدودهم؛ فلما ضعفت الخلافة، وقتل المتوكل بيد الأتراك، لم يكن للخليفة من النفوذ ما يستطيع أن يصدّ به هذا الطغيان، فانكشفت العصبيات وأصبحت تعمل جهارًا، ووسيلتها الحروب.

وكان من نتيجة هذه العصبيات الثلاث، واستعمالها السيف في بسط نفوذها، وضعف الخلفاء عن كبح جماحها، انقسام المملكة إلى مناطق نفوذ، فلو نظرنا إلى المملكة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثالث وفي القرن الرابع الهجري، رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب، وبلاد المغرب يحكم بعضها الأدارسة وهم عرب، وبعض قبائل البربر، والفاطمية وهم عرب، ومصر والشام يحكمها الطولونيون والإخشيديون، وهم أتراك، ثم الفاطميون وهم عرب، والحمدانيون في الموصل وحلب وهم عرب، والعراق يحكمه الأتراك باسم الخليفة العباسي

وينازعهم السلطان عليه الحمدانيون وهم عرب، ثم يستولي عليه البويهيون -وهم فرس- وفارس تتقسّمها دول مختلفة: الدُّلَفِية في كردستان وهم عرب، والصَّفَّارية في فارس كلها وهم فرس، والسامانية في فارس وما وراء النهر وهم فرس، والزيارية في جرجان وهم فرس، والحسنوية في كردستان وهم أكراد، والبويهية في جنوبي فارس وهم فرس، والغزنوية بأفغانستان والهند وهم أتراك.

وكان كل جنس من هذه الأجناس يطبع البلاد التي يحكمها بطابعه الخاص، فطابع التركية حب للجندية والفروسية، والاستكثار من الجنود من جنسهم لتقوية حكمهم، ثم كثرة الخلافة فيما بينهم، وتعصب كل فريق لقائد كالبدو في تعصبهم للقبائل واعتزازهم بقبيلتهم، ونظرهم في شيء من الاحتقار إلى أهل البلادِ المحكومة بهم، وانتصارهم لمذهب أهل السنة، وعدم ميلهم إلى الفلسفة والجدل في الدين، وتقريبهم علماء الدين وخاصةً علماء التفسير والحديث، وحبّهم للأموال يأخذونها من الرعية في غير حكمة وأناة ونظر بعيد، فبدل أن يعنوا بموارد المال من ريّ، ونظام ضرائب، وإصلاح أراض، وتنظيم تجارة، واستغلال منابع الثروة يجيلون أبصارهم في الناس ويتعرّفون ذوي الثروة، فينتهزون الفرصة لمصادرتهم أو التنكيل بهم أو نحو ذلك، ثم ينفقون ما تصل إليه أيديهم في الترف والنعيم، فإذا أسرفوا وخلت أيديهم من جديد ثاروا على من لديه المال -ترى تاريخهم- في العراق في ذلك العهد سلسلة مطالبات للخليفة بالأموال، فإذا لم يعطهم خلعوه، وإن أعطاهم سكتوا عنه أن يفرُغ مالهم، ثم أعادوا الكرّة، وهكذا فعلوا في الوزراء والكبراء والتجار، وهم مع كل هذا لا ينظرون إلى وسائل المال ليصلحوها، ولذلك سرعان ما ينضب معين الدولة لقد كان لدى الخلفاء ثروة هائلة تقدّر بالملايين، فما زالوا يلحّون عليهم في طلب المال، والخلفاء يفتدون أرواحهم بالعطاء حتى تركوهم ولا شيء في أيديهم. ومن أجل هذا نقرأ كثيرًا في تاريخ هذه العصور دفن الأموال في الأرض، وبناء

الحوائط عليها، وتظاهر الأغنياء بالفقر، ونحو ذلك.

وطابع الفرس حب الفخفخة والظهور، قد ورثوا مدينة قديمة مملوءة بالتقاليد والأوضاع، فطُبعوا عليها بمحاسنها ومساويها؛ فلهم قدرة على تنظيم الحكم، ومعرفة واسعة بما يزيد الثروة ويضعفها، ولهم عقول مثقفة تتذوق الأدب والعلم وتهتز لهما، فهم يشجعون العلم لا بالمعنى الضيق الذي يشجعه التركي، ولكن بمعناه الواسع الذي يشمل الفلسفة بفروعها المختلفة قد كثرت المذاهب الدينية القديمة عندهم من مانوية وزرادشتية ومزدكية، فكثرت في الإسلام مذاهبهم من زيدية واثني عشرية وسبْعية وغير ذلك، وورثوا ما يرثه أبناء كل أمة تحضّرت وهرمت من ميل إلى الترف والنعيم، وانهماك في اللذائذ. وأورثهم ضغط الدولة الأموية عليهم وتحقيرهم ميلًا كامنًا إلى الانتقام من العرب والأخذ بالثأر منهم في لين وهوادة، وعلّمهم التشيعُ التقية، فمكروا وعملوا في الخفاء وتستّروا، وأسسوا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحيانًا، وبالدعوة المقنّعة بالعلم أحيانًا، إلى غير ذلك.

وطابع العرب ميل إلى البداوة، وحكم بالقبلية، واعتزاز بدمهم، واحتقار لغير جنسهم، وزهوّهم بسيفهم ولسانهم، وقلقهم واضطرابهم، فإذا أحسّوا ضعف رئيسهم فما أسرع ثورتهم؛ ثم هم أسرع ما يكون قبولًا للتأقلم والتحضر، فإذا تحضروا انغمسوا في النعيم، ومالوا إلى خصب العيش، وتأنّقوا في المأكل والملبس والمشرب، كما كان شأن الفاطميين بعد انتقالهم من المغرب إلى مصر، وكما كان شأن من نزل من العرب في الأندلس، وكما كان شأن العرب الفاتحين لبلاد فارس والروم؛ وهم في أول أمرهم شجعان صرحاء بسطاء، فإذا انغمسوا في النعيم، وقعوا في سيئات الحضارة ففقدوا صراحتهم وبساطتهم؛ أحب إليهم الأدب والشعر لا

الفلسفة والعلم، إلا أن يستعينوا بغيرهم من الموالي في تجميل دولتهم بالفلسفة والعلم.

وكثيرًا ما كان يتعاقب على القطر الواحد هذه الأجناس الثلاثة أو جنسان منها، فتعاقب على العراق العرب والفرس والترك، وعلى مصر العرب والترك، وإذ ذاك يسيقه كل جنس بكأسه، ويتكوّن لكل قطر مزاج هو نتيجة طبع الأمة مع من تعاقب عليها من الأجناس.

وهناك عنصران آخران كان لهما أثر في الحياة الاجتماعية في هذا العصر، وإن كان هذا الأثر في المنزلة الثانية، وأعني بهما الروم والزنج.

الروم:

كان العرب يطلقون على المملكة البيزنطية «بلاد الروم»، ومن ثم أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط «بحر الروم». وعلى مرّ الزمان كان أكثر ما يطلق اسم الروم على بلاد النصارى المتاخمين للمملكة الإسلامية، ولهذا كان أكثر ما يطلق على بلاد النصارى في آسيا الصغرى؛ وكانت تسمى الحدود التي بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية «الثغور» ممتدة من ملطية إلى أعلى الفرات وإلى طرسوس، وكانت هذه الثغور محصّنة من الجانبين، ومنقسمة إلى قسمين: ثغور الجزيرة، وثغور الشام، فمن الأول مَلْطية، وزِبَطْرة، وحصن منصور، والحَدَث، ومرعش، والهارونية، والكنيسة، وعين زَرْبَة؛ ومن الثاني: المصيصة؛ وأَذَنة؛ وطرسوس.

ومنذ فُتح الشام ومصر في عهد عمر بن الخطاب، والحروب قائمة بين المسلمين والروم، والذي نريد أن نعرض له الآن ما كان بين الروم والمسلمين في العصر الذي نؤرّخه؛ فقد كثرت الحروب بين الفريقين، وكانت هذه الثغور بين حركتي مدّ وجزر

باستمرار. فمن ابتداء هذا العصر حدثت وقعة عمورية المشهورة في عهد المعتصم، واستمرت بعد ذلك واشتدّت بين الروم والحمدانيين، وعلى الأخصّ أيام سيف الدولة الحمداني.

وليس يهمنا هنا تاريخ هذه الحروب، ولا جانبها السياسي، وإنما يهمنا ما كان لها من أثر اجتماعي أو عقلي.

فقد كانت هذه الحروب سببًا في أسر عدد كبير من الروم؛ واسترقاق كثير منهم، ففي وقعة عمورية «أقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف، وقتل من سواهم؛ وأمر ببيع المغانم في عدة مواضع... وكان لا ينادي على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه طلبًا للسرعة، وكان ينادي على الرقيق خمسة خمسة، عشرة عشرة، طلبًا للسرعة[1]. وكانت حرب بين الروم والمسلمين في صقلية سنة ٣٥٣هـ، فتقدم المسلمون إلى «رَمْطة» «وملكوها عنوة وقتلوا من فيها، وسَبَوْا الحرم والصغار وغنموا ما فيها وكان شيئًا كثيرًا عظيمًا»[2]. وفي سنة ٣٤٣هـ غزا سيف الدولة الروم «فقتل وأسر وسبى وغنم»، فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته»[3]، ومثل هذا كثير فالحروب تكاد تكون متصلة، والأسر من الجانبين متتابع. أنتجت هذه الوقائع نتائج كثيرة:

فمنها أنها خلقت لنا أدبًا عربيًّا حربيًّا قويًّا، كقصيدة أبي تمام في فتح عمورية: «السيف أصدق أنباء من الكتب»؛ وقصائد المتنبي في حروب سيف الدولة للروم،

---

(١) ابن الأثير: ٦/ ١٨٠.

(٢) ابن الأثير: ٨/ ٢٠٠.

(٣) ابن الأثير: ٨/ ١٨٣.

كقصيدته يذكر الوقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحَدَث: «غيري بأكثر هذا الناس ينخدع»، وقصيدته لما سار سيف الدولة يريد الدمستق: «نزور ديارًا ما نحب لها مغنى» إلخ إلخ؛ وكالقصائد الروميات لأبي فراس، وهي قصائد من غرر شعره، قالها -لما أسره الروم- في الحنين إلى أهله وأصحابه، والتبرّم بحاله من أسر ومرض وغربة إلى غير ذلك.

ومنها ما كان من انتشار الروم من رجال ونساء وغلمان في بيوت الناس والخلفاء والأغنياء كمماليك، حتى إن بعض الخلفاء في هذا العصر كانت أمهم رومية؛ فالمنتصر بالله ابن المتوكل أمه رومية، والمعتز بالله أمه رومية اسمها «قبيحة»، وقد اشتهرت في التاريخ بغناها وثروتها وتغلّبها على عقل المتوكل؛ والمعتمد على الله أمه رومية اسمها «فتيان»؛ والمقتدر بالله أمه رومية على بعض الأقوال، وكان لها في أيام ابنها سلطان في تدبير الأمور، حتى أمرت قهرمانتها أن تجلس للمظالم وتنظر في رقاع الناس؛ وأم الراضي بالله رومية اسمها ظلوم إلخ.

واستكثر الخليفة المقتدر من الخدم والمماليك من الروم والسودان، حتى قالوا إنه بلغ عددهم أحد عشر ألفًا، وكانوا في أول عهده ألفًا ومائة.

وفي المقريزي أن أحمد بن طولون -لما ولي مصر- اشترى العبيد من الروم والسودان... وصار من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال يضيق بها داره ولا يتسع له... فبنى القصر والميدان، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لنفسهم حوله فاختطوا... ثم قطعت القطائع، فكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم»[1]. «وكانت كل قطيعة لسكنى جماعات بمنزلة

(١) خطط ١/ ٣١٥.

الحارات التي في القاهرة»[١].

ولما اختطّت القاهرة اختطّت الروم حارتين. «وفي سنة ٣٩٩هـ أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم فهدمت ونهبت»[٢].

كما كان في بغداد دار تسمّى دار الروم بالشماسية، وكان لهم بهذا الحي كنيسة على مذهب النسطورية، ودير يسمى دير الروم.

وانتشرت الجواري الروميات في القصور، وكانت لهن ميزات. قال ابن بطلان: «الروميات بيض شقر، سباط الشعور، زرق العيون، عبيد طاعة وموافقة وخدمة، ومناصحة ووفاء وأمانة ومحافظة، يصلحن للخَزْن لضبطهن وقلّة سماحتهن، لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة».

وتعشّق بعض الشعراء الغلمان الروم، فكان للبحتري غلام رومي اسمه «نسيم»، «كان قد جعله بابًا من أبواب الحيل على الناس، فكان يبيعه ويعتمد أن يصير إلى مِلْك بعض أهل المروءات ومن يَنفق عنده الأدب، فإذا حصل في ملكه شبّب به وتشوّق ومدح مولاه، حتى يهبه له، فلم يزل ذلك دأبَه حتى مات «نسيم» فكفى الناس أمره»[٣]. وفي «نسيم» يقول البحتري:

دعا عَبرتي تجري على الجور والقصد ... أظن نسيمًا قارف الهجر من بعدي

خلا ناظري من طَيفه بعد شخصه ... فواعجبًا للدهر فقدًا على فقد

وقد أنجب هذا العنصر الرومي أدباء وعلماء، كان لهم في فنهم وعلمهم طابع

---

(١) ١/٣١٣.

(٢) ٢/٨.

(٣) معاهد التنصيص: ١١٠.

خاص لم يكن مألوفًا في العقلية العربية والفارسية، من أشهر هؤلاء ابن الرومي الشاعر، وابن جني النحوي.

فابن الرومي من أصل رومي كما يدل عليه اسمه، فهو علي بن العباس بن جريج، وله في الشعر ميزات قلّما اجتمعت لغيره من شعراء العربية، هي أشبه شيء بالروح الرومي؛ فهو طويل النفس في قصائده طولًا قلّما يجارى، وهو يقع على المعنى فلا يزال يستقصي فيه حتى لا يدع فيه فضلة ولا بقية؛ وهو كثير التعليل لما يقول كما يفعل بالنظرية الهندسية والبرهان عليها من مثل قوله:

لِمَا تؤذن الدنيا به من صُروفها ... يكون بكاء الطفل ساعةَ يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسحُ مما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنه ... بما سوف يلقَى من أذاها يهدَّد

وقوله في مليح رمدت عيناه:

قالوا اشتكت عينُه فقلت لهم ... من كثرة القتل مسّها الوصب

حُمْرتها من دماء من قَتَلَتْ ... والدم في النَّصل شاهد عجب

ومثل ذلك كثير لا نطيل به:

وهو يصوّر المهجُوّ صورة فنية تستخرج عجبك وتستثير ضحكك، كقوله في بخيل:

يقتِّر عيسى على نفسه ... وليس بباقٍ ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره ... تنفّس من مِنْخَرٍ واحد

وقوله في ثقيل:

إذا بـــــدا وجهــــه لقــــوم لاذت بأجفانهــــا العيــــون
كأنـــه عنـــدهم غَـــريم حلّـــت علـــيهم لــــه ديـــوان

وقوله:

معـــشر فـــيهم نكـــول إن نَـــوَوْا فعـــل خـــير، وعـــلى الـــشر مـــروذْ
ليـــتهم كـــانوا قـــرودًا فحكـــوا شـــيم النـــاس كـــما تحكـــي القـــرودْ

أما ابن جني، فهو كذلك رومي، أبوه جِنِّي كان مملوكًا روميًا لسليمان بن فهد الأزدي، ولعل أصل «جني» Jonah[1] فعربها العرب إلى جني. وكان ابن جني هذا غريبًا في تصوره النحو والصرف، فهو ماهر في التصريف ماهر في التعليل والقياس. قال الباخرزي في دمية القصر: «ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له وسيّما في علم الإعراب»، وكان المتنبي يقول فيه: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس».

وقد قال هو نفسه في خصائصه:

وحُلْـــــو شـــــمائل الأدبِ منيـــــفُ مراتـــــب الحـــــسب
لـــــه كَلَـــــفٌ بـــــما كلِفـــــتْ بـــــه العلـــــماء مِلْعَـــــرب
يبيـــــت يفـــــاتش الأنقـــــا ب عـــــن أسرارهـــــا الغَيَـــــبِ[2]
فمـــــن جَـــــدَد إلى جَلَـــــد إلى صـــــعد إلى صَـــــبَب
ويفـــــرع فكـــــرهُ الأبكـــــا رَ منهـــــا مـــــن حِمَـــــى الحجـــــب

(١) وفي بغية الوعاة أنها معرب كنى.
(٢) الغيب بفتحتين يقال: قوم غيب أي غائبون.

فيُردها كأن لها وإن خفيت سنى لهب

* * *

يجدّ بها وتحسبه للطف الفكر في لعب
سَباطة[1] مذهب سُبكت عليه ماءة الذهب

* * *

وطردًا للفروع على أصول وُطِّدِ رتب
إذا ما انحط غائرها سما فرعًا على الرتب
قياسًا مثل ما وقدت بليلٍ بَرزة الشهب

ومنها في أصله الرومي:

فإن أصبح بلا نسب فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول إلى فروم سادة نُجُب
قياصرة إذا نطقوا أرمّ[2] الدهر ذو الخطب

فابن الرومي وابن جني وأمثالهما كانوا عربًا في المنشأ والمَرْبَى، وكانوا رومًا بعقلهم الموروث، فجمعوا بين مزايا العقل المطبوع والعقل المصنوع، وأنتجوا منهما نتاجًا صالحًا ذا طعم خاص.

السود:

ومن العناصر التي كثرت في هذا العصر وكان لها أثر كبير الزنج الذين كانوا

(١) سباطة المطر: سعته وكثرته.
(٢) أرم: سكت.

يجلبون في الأكثر من سواحل إفريقيا الشرقية، ولا أدلّ على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التي قاموا بها قرب البصرة، وهددوا بها الدولة العباسية ودوّخوها أربعة عشر عامًا وأربعة أشهر (من ٢٥٥هـ إلى ٢٧٠هـ) وكانت حربًا بين الأجناس، بين السود والبيض، دعا إليها رجل ادّعى نسبته إلى علي بن أبي طالب، فزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وأكثر المؤرخين يرون أنه دعيّ وأن أصله عربي من عبد القيس، وقد توجه هذا الرجل إلى البصرة وحرّض الزنوج «الذين كانوا يكسحون السباخ» في أراضيها، فإن ملاّك هذه الأراضي كانوا يملكون سودًا من السودان يعملون لهم في أرضهم فيعزقونها ويرفعون عنها الطبقة المالحة ليصلوا إلى الأرض الخالية من الأملاح الصالحة للزراعة، وهو عمل شاق جدًّا في هذه المنطقة؛ فاستطاع هذا الذي لقّب بعد بصاحب الزنج أن يؤلّب هؤلاء العمال الزنوج بعد أن درس حالتهم وبؤسهم وأجورهم ونفسيتهم فأتاهم من الناحية الدينية فهي أفعل في نفوسهم، فادّعى أنه متّصل بالله على نحو ما، فاجتمع إليه خلق كثير، فوصف لهم بؤسهم وظلم سادتهم لهم، ورثي لعيشهم على السويق والتمر، ودعاهم إلى الخروج على هؤلاء الظالمين، «ومَنَّاهم ووعدهم أن يقوِّدهم ويرئّسهم ويملّكهم الأموال وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدِرَ بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئًا من الإحسان إلا أتى إليهم»، من وقع في يده من هؤلاء السادة مالكي العبيد كان يسلمه لغلمانه ويأمر بضربه. فكانت حركته الأولى حركة ضد الملاّك، ثم تطورت فصارت حركة ضد الدولة، وأن الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله، ودعا إلى مذهب الخوارج. قال المسعودي: «إنه كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج؛ لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه؛ وله خطبة يقول في أولها: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، ألا لا حُكم إلا لله؛

وكان يرى الذنوب كلها شركًا»[١]. وكان عدد هؤلاء الزنوج كثيرًا، وفيهم شجاعة نادرة ومران على القتال. وفي بعض الوقائع الحربية انضمت الفرقة السودانية في الجيش العباسي إلى إخوانهم الزنوج فزادوهم قوة. وقد تملكوا في بعض الأحيان «الأبلة» و«عَبَّادَان»، والأهواز ثم البصرة، وواسط والنعمانة، ورامهرمز؛ وكانوا يهزمون الجيوش العباسية المرة بعد المرة، واغتنوا، وأصبح الزنوج يملكون البيض بل خير من البيض. يقول المسعودي: «وقد بلغ من أمر عسكره -أي عسكر صاحب الزنج- أنه كان ينادَي فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس من ولد هاشم وقريش وغيرهم عن سائر العرب، وأبناء الناس، تباع الجارية منهن بالدرهمين والثلاثة، وينادي عليها بنسبها هذه ابنة فلان الفلاني، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون، يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تَخْدُم الوصائفُ. ولقد استغاثت إلى علي بن محمد -صاحب الزنج- امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه، فقال: هو مولاكِ وأولى بك من غيره»[٢].

وأخيرًا تغلّب عليهم الموفق -أخو الخليفة المعتمد على الله- وابنه أبو العباس -الذي صار فيما بعد خليفة ولقب بالمعتضد- وقتل صاحب الزنج بعد أن خرب الزنج كثيرًا من البلاد، وأفنوا كثيرًا من الناس. وقد قتلوا من أهل البصرة وحدها في وقعة واحدة ثلاثمائة ألف. «وقد تكلم الناس في قدر ما قتل -على يد الزنج- في هذه السنين -الأربع عشرة- من الناس فمكثر ومقل؛ فأما المكثر فإنه يقول أفنى من الناس ما لا يدركه العد، ولا يقع عليه الإحصاء، ولا يعلم ذلك إلا عالم الغيب... والمقلّ يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف، وكلا الفريقين يقول في ذلك ظنًا وحدسًا

(١) مروج الذهب: ٢/ ٣٤٤.

(٢) مروج الذهب: ٢/ ٣٥٠.

إذ كان شيئًا لا يدرك ولا يضبط[١].

وقد سقنا هذا كله للدلالة على قوة هذا العنصر الزنجي وخطره في ذلك العصر؛ وبجانب هذا كانت لهم ناحية اجتماعية لها قيمتها.. وكانوا يطلقون كلمة السودان على ما يشمل الأحباش، وقديمًا اتصل هؤلاء السودان بالعرب فكان منهم بلال الحبشي مؤذن رسول الله؛ ومنهم سعيد بن جبير سيد التابعين الذي قتله الحجاج؛ وكان من أشعر شعرائهم في العصر الأموي الحَيْقُطَان؛ وقد هجا جريرًا وفخر عليه بالزَّنج، فقال:

والـزَّنج لـو لاقيـتهم في صَـفِّهم ... لاقَيْـت ثَـمَّ جحَاجِحًـا أبطـالا

وكان الزنج يفخرون بطلاقة اللسان، وكثرة الكلام، وشدة الأبدان، والسخاء، وقلة الأذى، وطيب النفَس، وضحك السن، وحسن الظن[٢]. وقد عيَّروا بصغر عقولهم، وضعف ذكائهم، وقلّة علمهم، فأجابوا بأنكم لم تروا الزنج الحقيقيين، وإنما رأيتم السبي يجيء من السواحل هؤلاء ليس لهم جمال ولا عقول، ولو رأيتم كرام الزنج لرأيتم الجمال والكمال والعقل؛ قالوا: واعتبروا في ذلك بمن تَسْبُونهم من أهل السند والهند، فإنه لم يتفق لكم واحد ممن سبيتموهم له عقل وعلم مع ما اشتهر به أهل السند والهند من العلم بالحساب والنجوم، وأسرار الطب، والتصاوير والصناعات العجيبة[٣].

وكانت طائفة من الجند من الزنج كما رأينا قبل، وكان منهم الكثير في خدمة القصر. وقد نبغ منهم كافور الإخشيدي الذي ملك مصر والشام، وخطب له على

(١) المصدر نفسه: ٢/ ٢٥٠.

(٢) الجاحظ في رسائله.

(٣) انظر الرسالة الثانية للجاحظ من الرسائل الثلاث التي نشرها فان فلوتن ص٧٦، ٧٧.

المنابر بمكة والحجاز، وكان عبدًا أسود أتى به من بلاد السودان واشتراه الإخشيد بثمانية عشر دينارًا؛ وقد مدح المتنبي سواده فقال:

فجاءت به إنسان عين زمانه ... وخلّت بياضًا خلفها ومآقيا

ثم ذمّ سواده حين هجاه فقال:

من علّم الأسود المخصيّ مكرمة ... أقومُه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه في يد النخّاس دامية ... أم قَدره وهو بالفَلسين مردود

وذاك أن الفحول البيض عاجزة ... عن الجميل فكيف الخصية السود

ومن قديم كان للبيض نساء من السود، فأعشى سليم كانت له «دنانير» بنت كعبوية الزنجي، وكانت زنجية؛ وقد رآها تكتحل فقال:

كأنها والكحل في مِرْوَدها ... تكحل عينيها ببعض جلدها

وقد تزوج الفرزدق أم مكية الزنجية، وترك ما عنده من النساء من أجلها. وقال فيها:

يا ربَّ خَوْدٍ من بنات الزَّنْجِ[1]

وكثر ذلك في العصر العباسي، فامتلأت بهن القصور وبيوت الأوساط والفقراء؛ فقد كانت الجواري البيض أغلى ثمنًا، فكانت أكثر ما تكون في بيوت الأغنياء، أما السود فكثيرات ورخيصات.

وقد ذكر ابن بطلان خصائص السود فقال:

---

(١) انظرها في الأغاني جزء ١٩ ص٢١.

«الزنجيات مساويهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن، وتحددت أسنانهن، وقلّ الانتفاع بهن، وخيفت المضرّة منهن، والغالب عليهن سوء الأخلاق، وكثرة الهرب، وليس في خلقهن الغم، والرقص والإيقاع فطرة لهن، وطبع فيهن... ويقال لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع. وهم أنقى الناس ثغورًا لكثرة الريق، وكثرة الريق لفساد الهضوم؛ وفيهن جَلَد على الكدّ، فالزنجي إذا شبع فصب العذاب عليه صبًّا فإنه لا يتألم له. وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن. أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها، يعتادهن السلّ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها، وفيهن خيرية، ومياسرة وسلاسة انقياد، يصلحن للائتمان على النفوس... قصار الأعمار لسوء إلهضم».

وكما تقاسمت المملكة الإسلامية العناصر الجنسية المختلفة، كذلك تقاسمتها المذاهب الإسلامية المختلفة والديانات المختلفة. ولنذكر في ذلك كلمة مجملة تصوّر هذه الحال:

فقد كان الخلفاء سنيين، والأتراك سنيين غالبًا، والفرس شيعيين غالبًا، والعرب بين سنيّ وشيعي؛ فالفاطميون شيعة، والحمدانيون يغلب عليهم التشيع، فمن آثارهم التي وصلت إلينا درهم لناصر الدولة الحمداني على أحد وجهيه:

لا إله إلا الله

المطيع لله

ناصر الدولة.

وعلى الآخر:

محمد

رسول الله

عليّ وليّ الله.

ويروي المؤرخون أن سيف الدولة عثر في حلب على قبر للمحَسِّن بن الحسين فبنى عليه، وكتب على حَجَره:

«عمّر هذا المشهد المبارك -ابتغاء لوجه الله وقربه إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب- الأمير الأجلّ سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان.

ورووا أن سيف الدولة زوّج ابنته ست الناس لأبي تغلب الحمداني، وضرب لهذا الحادث دنانير على أحد وجهيها:

محمد رسول الله، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فاطمة الزهراء، الحسن، والحسين، جبريل.

وعلى الآخر:

أمير المؤمنين المطيع لله، الأميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة، الأميران أبو تغلب، وأبو المكارم.

فهذا يرجح أن دولة الحمدانيين كانت شيعية.

فكانت المملكة الإسلامية مسرحًا للعصبيات الجنسية والعصبيات المذهبية. وأوضح الأمثلة لذلك حالة العراق في عهد الدولة البويهية؛ فقد كان مملوءًا بالأتراك والديلم، والأولون سنيّون، والآخرون فرس شيعيّون، والحروب والفتن والمصادرات وكبس البيوت لا تنقطع بينهما. وقد ذهب في سبيل ذلك ضحايا كثيرة من الوزراء والكتاب والعلماء، حتى حكى مسكويه في حوادث سنة ٣٦٠هـ أن بختيار البويهي «رأى لمعالجة هذه الفتن أن يعقد بين رؤساء الأتراك ورؤساء الديلم مصاهرات لتزول العداوات التي نشأت بينهم، ، فابتدأ بعقد مصاهرة بين المرزبان بن عز الدولة (البويهي)، وبين بختكين (التركي)، وفعل مثل ذلك بجماعة، وأصلح بينَ الديلم والأتراك، واستحلف كل فريق منهما لصاحبه، فحلفوا جميعًا... فزال الظاهر ولم يزل الباطن»[1]. وقال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٤٣هـ: «في هذه السنة تجددت الفتنة بين السنة والشيعة، وعظمت أضعاف ما كانت قديمًا، وسببها أن أهل الكرخ عملوا أبراجًا كتبوا عليها بالذهب: «محمد وعليّ خير البشر»، وأنكر السنية ذلك، وادعوا أن المكتوب محمد وعليّ خير البشر، فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر؛ وأنكر أهل الكرخ الزيادة؛ فانتدب الخليفة القائم بأمر الله من حقّق، فكتبوا بتصديق أهل الكرخ. وحمل الحنابلة العامة على الإغراق في الفتنة. وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة فمحوا «خير البشر»، فقالت السنّية: لا نرضى إلا أن يقلع الآجر الذي عليه محمد وعليّ، وألا يؤذَّن «حي على خير العمل»، وامتنع الشيعة عن ذلك. وقتل رجل هاشمي من السنّية، فحمله أهله على نعش وطافوا به في الحربية وباب البصرة وسائر محلة السنّية، واستنفروا الناس للأخذ بثأره، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل؛ فلما رجعوا من دفنه قصدوا المشهد فدخلوه، ونهبوا ما فيه من قناديل ومحاريب من ذهب وفضة؛ فلما كان الغد اجتمعوا وأضرموا حريقًا، فاحترق كثير

(١) تجارب الأمم: ٦/ ٢٨٢.

من قبور الأئمة وما يجاورها من قبول بني بويه؛ وقصد أهل الكرخ الشيعيون إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه، وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعد السرخسي وأحرقوا الخان ودور الفقهاء، وامتدت الفتنة إلى الجانب الشرقي»[١]. وقال في سنة ٤٤٤هـ: «في هذه السنة زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم منن السنّية، وكان ابتداؤها أواخر سنة ٤٤٤هـ؛ فلما كان الآن عظم الشر واطرحت المراقبة للسلطان، واختلط بالفريقين طائفة من الأتراك؛ فلما اشتد الأمر اجتمع القواد، واتفقوا على الركوب إلى المحال، وإقامة السياسة بأهل الشر والفساد، وأخذوا من الكرخ إنسانًا علويًا وقتلوه، فثار نساؤه ونشرن شعورهن واستغثن، فتبعهن العامة من أهل الكرخ، وجرى بينهم وبين القواد ومن معهم من العامة قتال شديد، وطرح الأتراك النار في أسواق الكوخ فاحترق كثير منها وألحقتها بالأرض».

وقد اشتهرت الكوفة بالتشيّع والبصرة بالتسنّن[٢]، فقال الجاحظ: إن الكوفة علوية، والبصرة عثمانية، ثم انتشر بعد الجاحظ التشيع في البصرة حتى كان فيها في القرن الخامس ما لا يقلّ عن ثلاثة عشر مشهدًا للعلويين. أما الشام فمن قديم عرفت بالسنية، ويقول النسائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ: «دخلت دمشق والمنحرف عن علي رضي الله عنه كثير، فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب» يعني كتاب «الخصائص» في فضل علي بن أبي طالب. وسئل وهو بدمشق عن معاوية وما روى من فضائله، فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأسًا برأس حتى يفضل؟! فما زال أهل دمشق يدفعون في حضنه حتى أخرجوه من المسجد، ثم حمل إلى الرملة فمات بها[٣].

---

(١) ابن الأثير: ٩/ ٢١٥ باختصار.

(٢) هذه صيغة اصطنعناها نسبة إلى أهل السنة.

(٣) ابن خلكان: ١/ ٢٩.

وتقسّمت البلاد الشيعة والسنّية، بل تقسم البلد الواحد التشيّع والتسنّن؛ فبلدة نابلس في النصف الثاني من القرن الرابع كان نصفها سنيين ونصفها شيعيين، قال المقدسي المتوفى سنة ٣٧٥هـ: «ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة».

وجزيرة العرب نفسها كذلك، «فمذاهبهم في مكة وتهامة وصنعاء وقرْح سَنية؛ وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شُرَاة غالية؛ وبقية الحجاز وأهل الري بعمان وهجر وصعدة شيعة»[١]، «ونصف الأهواز شيعة»[٢]، «وأهل قُمْ شيعة غالية قد تركوا الجماعات وعطلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه»[٣]. وحكى ياقوت أنه ولّي عليهم رجل سنّي متشدّد، فبلغه أن أهل «قم» لبغضهم الصحابة لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر أو عمر، فجمع رؤساءهم وقال لهم: إن لم تأتوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر لأفعلن بكم ولأصنعن، فاستمهلوه ثلاثة أيام، وفتشوا فلم يجدوا إلا رجلًا صعلوكًا حاقيًا عاريًا أحول أقبح خلق الله منظرًا اسمه أبو بكر، لأن أباه كان غريبًا استوطنها فسماه بذلك، فجاؤوا به فشتمهم إلخ[٤].

وهكذا سادت العالمَ الإسلامي هاتان النزعتان -السنّية والشيعة- تتعاديان وتتقاتلان. هذا عدا ما قام به الشيعة من مؤامرات لقلب الدول والاستيلاء عليها، وسيأتي الكلام على ذلك في حينه.

وهناك نزاع آخر، وهو النزاع بين المذاهب الفقهية قد كان الخلاف أيام أصحاب المذاهب، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، خلافًا في الرأي

---

(١) المقدسي: ٩٦.

(٢) ص: ٤١٥.

(٣) ٣٩٥.

(٤) معجم ياقوت في مادة «قم».

والبرهان؛ غاية التعصّب أن يعتقد أن مذهبه حق يحتمل الخطأ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب، وقلّ أن نرى بين أئمة المذاهب عداء حادًا إلا قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، وازداد بعض الشيء أيام أتباعهم، ولكنه قلّ أن يتعدى ذلك إلى ضرب أو قتال. فلما انتهى هذا الطور أخذت العصبية تتزايد إلى أن بلغت القتال؛ ففي القرن الثالث والرابع نرى أن الحنابلة من حين لآخر يقومون بالثورات الكبيرة، من أمثلة ذلك ما رواه ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٣هـ إذ قال: «وفيها عظم أمر الحنابلة (ببغداد) وقويت شوكتهم، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة، وإن وجدوا نبيذًا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجل مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهجوا بغداد[1]. وركب صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد لا يجتمع من الحنابلة اثنان، ولا يناظَرون في مذهبهم، ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين، فلم يفد فيهم، وزاد شرّهم وفتنتهم، واستظهروا بالعميان الذي كانوا يأوون المساجد. وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان حتى يكاد يموت؛ فخرج توقيع الخليفة الراضي بما يقرأ على الحنابلة، ينكر عليهم فعلهم ويوبّخهم باعتقاد التشبيه وغيره. [فمما جاء في هذا التوقيع]: تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، وهيئتكم الرذلة على هيئته، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين، والشعر القطط، والصعود إلى السماء، والنزول إلى الدنيا، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا؛ ثم طعنكم على خيار الأمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم إلى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة،

(١) أصل أرهج أثار الغبار ثم استعمل لإثارة الفتن.

والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوّارها بالابتداع، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبل رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأمرون بزيارته وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، فلعن الله شيطانًا زيّن لكم هذه المنكرات وما أغواه! وأمير المؤمنين يقسم بالله قسمًا جهرًا يلزمه الوفاء به، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوجّ طريقتكم ليوسِعَنّكم ضربًا وتشديدًا، وقتلًا وتبديدًا، وليستعملن السيف في رقابكم، والنار في منازلكم ومحالّكم»[1].

وأمثال هذه الحادثة كثير في كتب التاريخ.

ثم الخلاف الشديد بين الحنفية والشافعية، حتى كان يؤول الأمر في بعض الأحيان إلى خراب البلد من جرّاء هذا الخلاف. يقول «ياقوت» عند الكلام على «أصفهان» بعد أن ذكر مجدها القديم: «وقد فشا فيها الخراب في هذا الوقت وقبله في نواحيها لكثرة الفتن والتعصّب بين الشافعية والحنفية، والحروب المتّصلة بين الحزبين، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وخربتها، لا يأخذهم في ذلك إلّ ولا ذمّة؛ ومع ذلك فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان أو يقيم بها فيصلح فاسدها، وكذلك الأمر في رساتيقها وقراها التي كل واحدة منها كالمدينة».

ويقول عند الكلام على «الرّيّ»: كان أهل المدينة ثلاث طوائف: شافعية وهم الأقلّ، وحنفية وهم الأكثر، وشيعة وهم السواد الأعظم، لأن أهل البلد كان نصفهم شيعة، وأما أهل الرستاق فليس فيهم إلا شيعة وقليل من الحنفية، ولم يكن فيهم من الشافعية أحد فوقعت العصبية بين السنة والشيعة فتظافر عليهم الحنفية والشافعية، وتطاولت بينهم الحروب، حتى لم يتركوا من الشيعة من يُعرف؛ فلما

---

(١) ابن الأثير: ٨/ ١٠٦.

أفنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية، ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية؛ هذا مع قلّة عدد الشافعية، إلا أن الله نصرهم عليهم. وكان أهل الرستاق -وهم حنفية- يجيئون إلى البلد بالسلاح الشاك ويساعدون أهل نحلتهم، فلم يغنهم ذلك شيئًا حتى أفنوهم[1] إلى غير ذلك.

اليهود والنصارى:

وربما كانت الدولة الإسلامية في هذا العصر أكثر الأمم تسامحًا مع المخالفين لها في الأديان، وخاصةً أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رغم ما كان يبدو بعض الأحيان من ظلم وعسف كالذي كان في عصر المتوكل، وقد سبق ذكره؛ وربما وقع على المسلمين من هذا الظلم ما وقع على غيرهم.

وقديمًا كان الامتزاج بين المسلمين واليهود والنصارى حتى في الأسرة الواحدة بما أباح الله للمسلمين أن يتزوّجوا بالكتابيات.

ونرى في هذا العصر حركة اليهود والنصارى قد اتسعت عما كانت بسبب كثرة الاتصال التجاري والحربي والعلمي والمسلمون في كثير من مواقفهم يعدلون بينهم ويقرّبون بضعهم، حتى لقد عفوا عن المال الذي يتركه النصراني من غير وارث وردّوه إلى أهل ملّته؛ فالخليفة المعتضد «أمر أن يرد تركة من مات من أهل الذّمة ولم يخلف وارثًا على أهل ملّته»، استنادًا إلى ما أفتى به يوسف بن يعقوب وعبد الحميد بن عبد العزيز القاضيان كانا بمدينة السلام: من أن السنّة جرت بأن أهل كل ملّة يورِّثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذي رَحِمه[2].

---

(١) معجم ياقوت: ٤/ ٣٥٦.

(٢) كتاب الوزراء للصابي: ص٢٤٨.

وانتشر اليهود والنصارى في نواحي المملكة الإسلامية وأطرافها وداخلها، فبلغ عدد اليهود في العراق وحدها حول سنة ١١٨٥م = سنة ٥٨١هـ على حسب تعداد بعض المؤرّخين ستمائة ألف، وانتشروا في دمشق وحلب، وعلى شاطئ دجلة والفرات، وفي جزيرة ابن عُمَر والموصل والحلّة والكوفة والبصرة وهمذان وأصفهان وشيراز وسمرقند. ويقول المقدسي: في خراسان يهود كثيرة، ونصارى قليلة؛ وكذلك يقول في همذان.

ويقول الرحّالة بنيامين الذي رحل سنة ١١٦٥م = سنة ٥٦١هـ: إن في القاهرة سبعة آلاف يهودي، وفي الإسكندرية ثلاثة آلاف، وفي الوجه البحري ثلاثة آلاف، وفي الوجه القبلي ستمائة[١].

وفي أوائل القرن الرابع كان في بغداد وحدها نحو من خمسين ألفًا من النصارى. ويقول للمقدسي في الشام: «إن أكثر الجهابذة والصيّاغين والصيارفة والدبّاغين بهذا الإقليم يهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى»[٢].

وانتشرت أديار النصارى في أنحاء المملكة، وكانت غنية ببساتينها وخمورها، واتصل الأدباء بها وأكثروا من القول فيها:

وكان لليهود والنصارى نفوذ كبير في بعض الدول في هذا العصر. وكان المسلمون في أول أمرهم لا يرضون باستخدامهم في شئون الدولة؛ فقد روي أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من الحِيرة، وكان نصرانيًا، فقيل له: لو اتخذته

---

(١) نقلًا عن متز.

(٢) ص١٨٣.

كاتبًا؟ فقال: «لقد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين»[١].

فعمر بن الخطاب كان يحسن معاملتهم ولا يستعين بهم في الأعمال، ولكن ذلك لم يدم طويلًا، فاستخدموا في ا لأعمال من عهد معاوية. وفي عصرنا هذا الذي نؤرّخه كثر استخدامهم، وزاد سلطانهم؛ فيقول المقدسي: «وقلّما ترى به (الشام) فقيهًا له بدعة، أو مسلمًا له كتابة، إلا بطبرية فإنها ما زالت تخرّج الكتّاب، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى[٢]. وفي القرن الثالث وليَ في بعض الأحيان ديوان الجيش نصراني، وكان المسلمون يقبّلون يده، قال الصابي في كتابه الوزراء: «إن علي بن عيسى قال لابن الفرات: ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلًا نصرانيًا، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبّلون يده ويمتثلون أمره؟! فقال له ابن الفرات: ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته، وقد كان الناصر لدين الله قلّد الجيش إسرائيل النصراني كاتبه، وقلّد المعتضد ملك بن الوليد النصراني كاتب بدر!! فقال علي بن عيسى: ما فعلا صوابًا؛ فقال ابن الفرات: حسبي الأسوة بهما وإن أخطأا على زعمك»[٣].

وذكر «عريب» في كتابه «صلة تاريخ الطبري» في خوادث سنة ٣٢٠هـ أن «أبا الجمال الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب كان يسعى دهرَه في طلب الوزارة، ويتقرّب إلى مؤنس وحاشيته ويصانعهم حتى جاز عندهم وملأ عيونهم، وكان يتقرّب إلى النصارى الكتّاب بأن يقول لهم: إن أهلي منكم، وأجدادي من كباركم، وإن صليبًا سقط من يد عبيد الله بن سليمان جدّه في أيام المعتضد، فلما رآه الناس قال: هذا شيء تتبرّك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا من حيث لا نعلم - تقربًا

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣.
(٢) ص١٨٣.
(٣) الوزراء: ٩٥.

إليهم بهذا وشبهه - يعني إلى مؤنس وأصحابه»[١].

وكان لعضد الدولة البويهي في بغداد وزير نصراني اسمه نصر بن هارون؛ وقد أذن له عضد الدولة في عمارة البيع والديرة وإطلاق الأموال لفقراء النصارى[٢].

وثارت لذلك مسألة فقهية، وهي: هل يجوز أن يكون الوزير من أهل الذمة أم لا؟ فقال صاحب «العقد الفريد للملك السعيد»: وهل يشترط في هذا الوزير -أي وزير التنفيذ ولا وزير التفويض «الإسلام»، حتى لو أقام السلطان وزير تنفيذ من أهل الذّمة كان جائزًا أم لا؟ اختلفت آراء الأئمة في ذلك؛ فذهب عالم العراق الإمام أبو الحسن علي بن حبيب البصري رحمه الله إلى جوازه؛ وذهب عالم خراسان إمام الحرمين أبو المعالي الجُوَيني إلى منعه، وعدّ تجويز ذلك من عالم العراق عثرة لن تقال، وخطأ فيما قال؛ وهذا بخلاف وزارة التفويض فإن هذا الشروط معتبرة من جملة ما تقدم بيانه من الأوصاف في حق المباشر لها»[٣]. واتسعت سلطة اليهود والنصارى في أيام الفاطميين بمصر، فمن أشهرهم يعقوب بن كِلِّس. قال ابن عساكر: «إنه كان يهوديًّا من أهل بغداد خبيثًا ذا مكر، وله حيل ودهاء، وفيه فطنة وذكاء. ونزل مصر أيام كافور الإخشيدي فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع؛ فقال: لو كان مسلمًا لصلح أن يكون وزيرًا! فطمع في الوزارة فأسلم... ثم هرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع المعز وخرج معه إلى مصر»، «وولي الوزارة للعزيز نزار بن المعز وعظمت منزلته عنده، وأقبلت عليه الدنيا، وانثال الناس عليه ولازموا بابه؛

---

(١) عريب: ٨٥.

(٢) ابن الأثير: ٨/ ٢٥٥.

(٣) ص١٤٧، والفرق بين الوزارتين أن وزير التفويض هو أن يفوض السلطان إلى الوزير تدبير المملكة والدولة برأيه، ويجعل إليه إمضاء أمورها بمقتضى نظره؛ وأما وزير التنفيذ فسلطته تنفيذ ما يأمر به السلطان، والأولى بالبداهة أهم.

ومهّد قواعد الدولة وساس أمرها أحسن سياسة، ولم يبق لأحد معه كلام»[١].

وكان ابن كِلّس يأخذ من العزيز في كل سنة مائة ألف دينار، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار، وبزّ من كل صنف بخمسمائة دينار[٢]. وأكثر الشعراء مدائحه؛ قال ابن خلكان: ولقد نظرت في ديوان أبي الرقّعْمَق الشاعر فوجدت أكثر مديحه في الوزير المذكور، وفيه يقول من قصيدة:

كل يوم له على ثُوَبِ الدهـ ... ـر وكرّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يدٍ شأنها الفرار من البخـ ... ـل وفي حومة الندى كرّاره
فاستجِرْه فليس يأمن إلا ... من تفيّا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيته مطرقا يُعـ ... ـمل فيما يريده أفكاره
لم يَدَع بالذكاء والذهن شيئًا ... في ضمير الغيوب إلا أثاره
ولا ولا موضعًا من الأرض إلا ... كان بالرأي مدركًا أقطاره
زاده الله بسطة وكَفَاهُ ... خوفَه من زمانه وحِذاره

«وفي أيام العزيز نزار كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي، وكان كثير الهجاء، فهجا يعقوب بن كِلّس وزير العزيز وكاتب الإنشاء من جهته أبا نصر عبد الله بن الحسين القيرواني:

قل لأبي نصر صاحبِ القصر ... والمتأتي لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز ... منه بحسن الثناء والذِكر

(١) ابن خلكان: ٢/ ٤٩١ وما بعدها.
(٢) ابن خلكان: ٢/ ٤٤٩.

وأعـــط وامنـــع ولا تَخَـــفْ أحـــدًا ... فـــصاحب القـــصر لـــيس في القـــصر
ولـــيس يـــدري مـــاذا يُـــراد بـــه ... وهـــو إذا مـــا درى فـــما يـــدري

ثم قال أيضًا وعرّض بالفضل القائد:

تنـــصّر فالتنـــصُّرُ ديـــن حـــقّ ... عليـــه زماننـــا هـــذا يَـــدُلّ
وقـــلُ بثلاثـــة عـــزّوا وجَلّـــوا ... وعَطِّـــل مـــا سـبواهم فهـــو عُطْـــل
فيعقـــوب الـــوزير أبٌ وهـــذا الـــ ... ـــعزيز ابـــنٌ وروح القـــدس فـــضل[1]

وقد وَلّى العزيز نزار أيضًا عيسى بن نسطورس النصراني كتابته، واستناب بالشام يهوديًّا اسمه مَنَشَّا، فاعتزّ بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة وجعلوها في صورة عملوها من قراطيس، فيها: «بالذي أعزّ اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي، وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها؛ فلما رآها أمر بأخذها، فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك فقبض عليهما، وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليهود شيئًا كثيرًا»[2]. ولكن الحاكم بأمر الله اضطهد النصارى واليهود في بعض نزواته، فأمرهم بشد الزنّار ولبس الغيار، «وألبس اليهود العمائم السود، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين في سفينة، وألا يستخدموا غلامًا مسلمًا، ولا يركبوا حمار مسلم، ولا يدخلوا مع المسلمين حمّامًا، وجعل لهم حمامات على حدة؛ ولم يبق في ولايته دورًا ولا كنيسة إلا هدمها»[3]، «وأمر النصارى بأن تعلق في أعناقهم الصلبان، وأن يكون طول الصليب

(١) ابن الأثير: ٩/ ٤٣.
(٢) ابن الأثير: ٩/ ٤٢.
(٣) النجوم الزاهرة: ٤/ ١٧٧.

الصليب ذراعًا وزنته خمسة أرطال بالمصري؛ وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قَرَامِي الخشب في زنة الصلبان»[١]، «ومنع النصارى من ركوب الخيل، وأن يكون ركوبهم البغال والحمير بسروج الخشب، والسيور السود بغير حلية، وأن يشدوا الزنانير، ولا يستخدموا مسلمًا، ولا يشتروا عبدًا ولا أمة، وتُتُبعت آثارهم في ذلك فأسلم منهم عدة»[٢]؟ ومع هذا فكان الكتّاب والأطباء في قصره من النصارى.

وتولّى الوزارة سنة ٤٣٦هـ للمستنصر بمصر «صدقة بن يوسف» وكان يهوديًا فأسلم، وكان معه أبو سعد التستري اليهودي يدبر الدولة؛ فقال بعض الشعراء:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غَايةَ آمالهم وقد مَلكوا

العزّ فيهم والمال عندهمُ ... ومنهم المستشار والمَلِكُ

يا أهل مصر إني نصحت لكم ... تهوّدوا قد تهوّد الفلك[٣]

هذه العناصر الجنسية من أتراك وفرس وعرب وروم وزنج وغيرهم، وما تستلزم من عصبيات؛ وهذه العصبيات المذهبية والطائفية من تسنّن وتشيّع، ومن حنابلة وشافعية وحنفية، ومن مسلمين ويهود ونصارى، وغير ذلك كانت كلها حركات تموج بها المملكة الإسلامية، تتعاون حينًا، وتتفاعل حينًا، وتؤثر في السياسة وفي الدين وفي العلم، وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحيانًا، والقتال الصريح أحيانًا؛ وكان لها كلها أثر واضح في كل ناحية من النواحي الاجتماعية:

قد أثّرت في الحالة المالية إما مباشرة وإما من طريق الحكم والسياسة، فعمّرت في

---

(١) ١٧٨.

(٢) خطط المقريزي: ٢/ ٢٨٧.

(٣) حسن المحاضرة: ٢/ ١١٧؛ وقد استفدت من إشارات للأستاذ متز إلى كثير من هذه المصادر.

ناحية وخربت في أخرى، وعدلت في ناحية وظلمت في أخرى.

وأثّرت في اللغة والأدب بدخول الأعاجم يتكلمون بلغاتهم، ويتعلمون اللغة العربية ويحمّلونها أفكارهم وآدابهم.

وأثرت في المرأة بكثرة الأجناس المختلفة ذوات الخصائص المختلفة، وقد حمَلَ النساءُ من هذه الأجناس خصائص الجمال والقبح في المظهر وفي الأخلاق وفي العادات، وغزون البيوت بما كان يعرضه النخّاسون منهن في سوق الرقيق، وبما كان يحمله الغزاة معهم في حروبهم مع الروم ومع الترك ومع الفرس ومع الزنج، وما كانوا يوزّعونه على الجنود وعلى الأهل والأقارب، وما كانوا يتخلّون عنه فيعرضونه في الأسواق.

وأثّرت في الدين من كثرة الجدل بين الفقهاء، ومن إثارة مسائل يدعو إليها هذا الجدل لم تكن معروفة من قبل؛ ومن تدخّل السياسة في الأمور الدينية والالتجاء إلى الفقهاء يسألونهم الحلول الفقهية فيما يعرض لهم من مشاكل سياسية واجتماعية؛ وبما أثاره النزاع الشديد بين السنية والشيعة، وغلبة التشيّع في بعض الأماكن وتكوين دول شيعية لم تكن في العصور الماضية، فدعاها ذلك إلى أن تبلور التشيّع وتستعمل عقولها في إيجاد نظام الحكم والدعوة التي تتفق وأصول الشيعة كما حصل ذلك في الدولة الفاطمية وبما كان من الاحتكاك الشديد بين المسلمين واليهود والنصارى، وما كان بينهم من تسامح أحيانًا، وخصومة أحيانًا، وما كان من جدل ديني بين هذه الطوائف، وما أثارته هذه الظروف المختلفة من مسائل طائفية تعرض على الفقهاء فيبدون فيها آراءهم في ضوء الحوادث الجديدة.

وأثّرت في العلم بما كان يحمله النصارى واليهود والفرس والهنود من علوم

آبائهم، وجدّهم في تقديم هذه الذخائر إلى الأمة الإسلامية باللغة العربية مما مكّن الناطقين باللسان العربي أن يأخذ كل منهم حظّه منها، ويهضمه ما استطاع ويزيد عليه ما استطاع. وتتعاون على الاستفادة منها وترقيتها العقول العربية والتركية والفارسية والرومية والهندية، ويؤلّف بينها العلم بعد أن فرّقت بينها العصبيات الجنسية والمذهبية؛ فيأخذ اليهودي والنصراني من العالم المسلم، ويأخذ المسلم من العالم اليهودي والنصراني، ويجلس الفارسي والتركي والهندي في حلقة العربي، ويتعاون الجميع في بناء الدولة العلمية غير آبهين بما كان من الساسة في تهديم الدولة من ناحيتها السياسية.

كل هذا وأمثاله كان من آثار هذه الحركات المختلفة، وكل ما ذكرته إشارة خاطفة لما كان لها من أثر قوّي فعّال سنحاول بعدُ شرح بعضه.

الباب الثاني
أهمّ المظاهر الاجتماعية
والسياسية في ذلك العصر

١ - **انقسام الدولة:** أهم مظهر يأخذ بالأبصار في ذلك العصر ما حصل للدولة الإسلامية من الانقسام؛ فقد كانت المملكة الإسلامية كلها في العصر العباسي الأول إذا استثنينا الأندلس وبعض بلاد المغرب تكوّن كتلة واحدة، وتخضع خضوعًا تامًا للخليفة في بغداد؛ هو الذي يعيّن ولاتها، وإليه يجبى خراجها، وإليه ترجع في إدارتها وقضائها وجندها وحلّ مشاكلها، وتدع له على المنابر وتضرب السكّة باسمه، ونحو ذلك من مظاهر السلطان. ثم أخذ هذا السلطان يقلّ شيئًا فشيئًا بضعف الخلافة حتى تمزّقت المملكة كل ممزّق، وأخذت الأقطار الإسلامية تستقل عن بغداد شيئًا فشيئًا، وأخذ يخشى ولاتها وأمراؤها بعضهم بأس بعض، ويضرب بعضهم بعضًا؛ فصارت المملكة الإسلامية عبارة عن دول متعددة مستقلة، علاقة بعضها مع بعض علاقة محالفة أحيانًا وعداء غالبًا؛ وأصبح لكل دولة مالها وجندها وإدارتها وقضاؤها وسكّتها وأميرها، إن اعترف بعضها بالخليفة في بغداد حينًا من الزمن، فاعتراف ظاهري ليس له أثر فعلي! وسوّدت صحف التاريخ بالقتال المستمر بين هذه الدول، وشغلوا بقتال أنفسهم عن قتال عدوّهم؛ ومن أجل هذا طمع فيهم الروم يغزوتهم كل حين ويستولون على بلادهم شيئًا فشيئًا، حتى الزنج والحبشة كانوا يغيرون على الدولة الفينة بعد الفينة فينهبون ويسلبون، ولم تعد المملكة الإسلامية مخشية الجانب كما كانت أيام وحدتها.

ففي سنة ٣٢٤هـ كانت البصرة في يد ابن رائق؛ وفارس في يد علي بن بويه؛ وأصبهان والري والجيل في يد أبي علي الحسن بن بويه؛ والموصل وديار بكر وربيعة

في أيدي بني حمدان؛ ومصر والشام في يد الإخشيديين؛ وإفريقية والمغرب في يد الفاطميين؛ وخراسان وما وراء النهر في يد السامانيين؛ وطبرستان وجرجان في يد الديلم؛ وخوزستان بيد البريدي؛ والبحرين واليمامة وهَجَر بيد القرامطة، ولم يبق للخليفة إلا بغداد وما حولها، وحتى هذه لم يكن له فيها إلا الاسم.

وقد أجاد المسعودي في ملاحظته وجه الشبه بين حالة المملكة الإسلامية بعد هذا الانقسام، ومملكة الإسكندر المقدوني بعد وفاته فقال: «ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطيع ومذاهبهم إذ كانوا كالمولَّى عليهم، لا أمر ينفذ لهم، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلّب على أكثرها المتغلبون، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم؛ وأما بالحضرة - بغداد- فتفرّد بالأمور غيرُهم فصاروا مقهورين خائفين، قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة. وما أشبّه أمور الناس في الوقت إلا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الملك الإسكندر بن فيلبس دَارَا ملك بابل إلى ظهور أردشير بن بابك، كلّ قد غلب على صقعه يحامي عنه، ويطلب الازدياد إليه مع قلة العمارة وانقطاع السبل، وخراب كثير من البلاد، وذهاب الأطراف، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الإسلام ومدنه»[1].

كان كثير من الدول يعترف بالخلافة وسلطتها الدينية، فهي إذا استقلّت سياسيًّا ومدنيًّا رأت مما يزيدها سلطة وقوة اعترافها بالخليفة واعتراف الخليفة بها، كما فعل عضد الدولة بن بويه مثلًا لما فتح كِرْمان، فقد استرضى الخليفة فأنفذ إليه الخليفة عهده وخِلَعه من الطوق والسوارين[2].

---

(١) المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف: ص٤٠٠.

(٢) تجارب الأمم: ٦/ ٢٥٣.

ومع مضي الزمن وضعف الخلافة قطعوا هذه الصلة أيضًا وتلقّبوا بإمرة المؤمنين أو بالخلفاء. وأول من فعل ذلك الفاطميون، فبعد أن فتحوا القيروان سنة ٢٩٧هـ تلقبوا بالخلفاء، وشجّعهم على ذلك أنهم شيعيون يقولون باغتصاب الأمويين والعباسيين حقّهم في الخلافة، فلما تملّكوا حققوا نظريتهم في أحقيتهم فتسمَّوا بالخلفاء فلما رأى الأندلسيون ذلك فلّدوهم مع أنهم سنيون، فتلقب عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس بأمير المؤمنين نحو سنة ٣٥٠، وكانوا يلقّبون من قبل بالأمراء، وببني الخلفاء. قال المقرّي: «هو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق، واستبدّ موالي الترك على بني العباس، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة ٣١٧هـ، فتلقب بألقاب الخلافة»[1].

وهنا يصح لنا أن نتساءل سؤالين: الأول: هل كان انقسام المملكة الإسلامية إلى أقسام على النحو الذي أبنّا في مصلحة الأقطار الإسلامية أو في غير مصلحتها؟ قد يبدو هذا السؤال غريبًا؛ لأن الناس اعتادوا أن يقيسوا رقي المملكة الإسلامية بوحدتها وضعفها بانقسامها، وبعبارة أخرى ربطوا رقيّ المملكة الإسلامية بحال الخليفة؛ فإذا كان الخليفة قويًّا باسطًا سلطانه على الأقطار كلها، فالدولة قوية، وإلا فهي ضعيفة.

وفي رأيي أن هذا مقياس غير صحيح؛ فقد يضعف الخليفة وتصلح الأقطار والعكس. وهذا ما حدث فعلًا، ففي رأيي أن كثيرًا من الأقطار الإسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة في بغداد خيرًا منها قبله؛ فيظهر لي أن مصر تحت حكم الطولونيين والإخشيديين والفاطميين كانت حالتها أسعد منها أيام ولاة بغداد قبل الطولونيين؛ وكذلك حكم السامانيين لفارس وما رواء النهر كان خيرًا من حكم من

(١) نفح الطيب: ٢/ ١٦٦، ويلاحظ عليه أن قتل المقتدر كان سنة ٣٢٠ لا سنة ٣١٧ كما ذكره.

سبقهم من ولاة العباسي، وربما كان شرّ أيام بغداد هو هذه الأيام التي كانت تخضع فيها للخلفاء، وما حولها مستقل عنها.

فإذا قسنا الأمور بمصلحة المحكومين لا الخلفاء وهو في نظري أصح مقياس كان هذا الانقسام في مصلحة الأقطار المستقلة في أغلب الأحوال، وعلى الأقلّ كان في مصلحتهم نسبيًّا، أعني بالنسبة للحالة السيئة التي كانوا عليها قبل استقلالهم، فالإدارة وانتقاع كل قطر بماله يصرفه في مصالحه والعدالة النسبية في توزيع الثروة ونحو ذلك، كلها كانت خيرًا منها أيام سلطة الخلفاء الضعفاء ومن يتوّلاهم من الأتراك الأقوياء.

والأندلس لما أتيح لها الاستقلال في بدء العصر العباسي، ومَنَعَتْها قوتها وبعدها من أن يخضعها العباسيون لحكمهم، أزهرت وتمدّنت وساهمت في بناء المدينة، في العلم والأدب والحضارة، وما أظن أنها كانت تبلغ هذا المبلغ لو عاشت في أحضان الدولة العباسية.

نعم! إنهم -وقد تفرقوا- أصبحوا أضعف أمام العدو الخارجي كالروم، وصار يحمل العبء كله دويلة مستقلة كدولة الحمدانيين، وكان يحمل العبء قبلُ المملكةُ الإسلامية كلها، فمن هذه الناحية كان هذا مظهر ضعف للدولة، خصوصًا والدول المستقلة لم تستطع أن تتفاهم، وترتب بينها نظامًا مشتركًا يضمن دفع غارة الأعداء الخارجي، لأن هذا النظام يتطلب رقيًا في الفكر، وضبطًا للعواطف، وتقديمًا للمصلحة العامة على الخاصة؛ وهي درجة لم يستطع المسلمون الوصول إليها حتى الآن! إنما كان علاقة كل دولة مسلمة بجارتها المسلمة علاقة عداء غالبًا، فلم يتمكنوا من التفاهم على مصالحهم الداخلية فضلًا عن المصالح الخارجية، ولو استطاعوا -مع استقلالهم- أن ينظموا شئونهم مع من بجوارهم، وينظموا صفوفهم

أمام عدوّهم الخارجي لبلغوا الغاية. ولكني مع هذه الشرور كلها أرى أن حالة كثير من البلدان الإسلامية نالت باستقلالها من الطمأنينة والرخاء ما لم تنعم به في الأيام الأخيرة لتبعتها بغداد.

والسؤال الثاني: ما موقف العلم والأدب بعد هذا الانقسام، هل أثّر فيهما أثرًا حسنًا أو سيئًا؟ وهل انحطّ العلم والأدب بانحطاط خلفاء بغداد أو رَقيًا باستقلال الأقطار؟

أرى أن العلم والأدب رقيا عما كانا عليه قبل، وأنه لم يؤثر فيهما كثيرًا ضعف خلفاء بغداد؛ ذلك أن حركة الترجمة التي نقلت ذخائر الأمم المختلفة وخصوصًا الأمة اليونانية، وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللسان العربي، فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه إليها الأفكار العربية تفهمها وتشرحها وتهضمها وتبتكر فيها وتزيد عليها؛ وهذا ما فعله عصرنا هذا كما سيأتي بيانه. ومن جهة أخرى كان وضع السلطة كلها في يد الخليفة يجعل بغداد المركز العلمي الوحيد، أو على الأقلّ المركز العلمي والأدبي الهام وما عداه فاتر ضعيف، فكان من تفوّق في علم أو أدب فلا أمل في شهرته ونبوغه، وذيوع صيته وثروته، إلا إذا رحل إلى بغداد وتقرّب بعلمه وأدبه إلى خلفائها وأمرائها؛ فلما استقلت الأقطار أصبحت كل عاصمة قطر مركزًا هامًا لحركة علمية وأدبية، فأمراء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد، ويُحلّون عاصمتهم بالعلماء والأدباء، ويفاخرون أمراء الأقطار الأخرى في الثروة العلمية والأدبية، كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المباني. فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد هام أصبحت لهما مراكز هامة متعددة، وأصبح علماء مصر -مثلًا- يساجلون علماء بغداد، وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق، وهذا من غير شكّ يشجع الحركة العلمية والأدبية ويقوّيها ويرقّيها.

وحتى نرى الأمراء الأتراك الذين لا يحسنون العربية يحبون أن تزين قصورهم بالعلماء والأدباء.

ومن ظريف ما يحكى في ذلك أن بجكم التركي كان بواسط، وكان من المقرّبين إليه أبو محمد بن يحيى الصُّولي؛ وكان بجكم لا يحسن العربية، فاستدعى يومًا الصوليَّ وقال له: إن أصحاب الأخبار رفعوا إليّ أني لما طلبتك من المسجد -وكان الصولي يقرأ درسًا في المسجد- قال الناس: أعْجَلَه الأمير ولم يتمّ مجلسنا، أفتراه يقرأ عليه شعرًا أو نحوًا أو يسمع من الحديث؟ -يقولون ذلك تهكمًا ببجكم لأنه لا يحسن العربية- ثم قال بجكم ردًا على هذا: «أنا إنسان، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون في الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنبتي وتحت اصطناعي وبين يديّ لا يفارقني»[1].

ولعله بهذا القول يعبّر عمّا في نفس كل أمير في كل إقليم.

ومن أجل هذا كان مؤرخ العلم والأدب قبل الاستقلال يجد نفسه أمام ثروة كبيرة علمية وأدبية في العراق، ثم لا يجد إلا نتفًا قليلة منها في تاريخ غيره؛ أما بعد الانقسام فلكل إقليم شخصية متميزة في علمها وأدبها.

على أنّا إن سلّمنا فرضًا أن الحياة السياسية بعد الانقسام كانت شرًا منها قبله، فلا نسلّم ذلك في العلم والأدب. والتاريخ يرينا أن الحالة العلمية لا تتبع الحالة السياسية ضعفًا وقوة؛ فقد تسوء الحالة السياسية إلى حدّ ما وتزهر بجانبها الحياة العلمية؛ ذلك لأن الحياة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيرًا من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة

(١) الأوراق: أخبار الراضي والمتقي للصولي ص١٩٥.

أن يفروا من العمل السياسي إلى العمل العلمي، لأنهم يجدون العمل السياسي يعرّضهم لمصادرة أموالهم، وأحيانًا إلى إزهاق أرواحهم، على حين أن العمل العلمي يحيطهم بجو خاص هادئ مطمئن، ولو كان الجو العام مائجًا مضطربًا. وكذلك كان الحال في تاريخ كثير من علماء المسلمين، جرّبوا الوزارة وولاية الأعمال فتعرّضوا للخطر فهربوا إلى العلم فنجحوا وأيضًا فقد وقر في نفوس الخلفاء والأمراء حرمة العلماء، متى لم يتعرضوا للسياسة من قريب ولا بعيد، وهذا يمكنهم من بحثهم العلمي في هدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بهم من فوضى واضطراب. لقد كان الفارابي مثلًا في جو سياسي مضطرب سواء كان في حلب بين الحمدانيين، أو في بغداد في حكم الأتراك، ومع ذلك خلق لنفسه، ولمن حوله من تلاميذه جوًّ يُرَقّى فيه علمه وبحثه، وإذا عصفت العواصف كانت حول حماه ولا تغشاه، لا يهمه في حياته إلا علمه؛ أما ما عداه من أفانين السياسة وألاعيبها، وشئون الدنيا وشهواتها فلا يأبه بها ويقول:

أخي خَلِّ حَيِّز ذي باطل ... وكن للحقيقة في حيِّز

فما الدار دار مُقام لنا ... وما المرء في الأرض بالمعجز

ينافس هذا لهذا على ... أقلّ من الكلم الموجَز

محيط السماوات أولى بنا ... فماذا التنافس في مركز؟!

وأبو العلاء المعرّي يترك الدنيا مضطربة في المعرّة وما حولها، وفي بغداد وما حولها، ويخلق لنفسه جوًّا علميًّا فكريًّا هادئًا لا نزاع فيه إلا على مسألة علمية أو مشكلة لغوية؛ أو فكرة فلسفية، لا علاقة له بأمير إلا أن يتشفّع عنده في بلده فيشفع، ولا علاقة له بوزير إلا أن يستفتيه في مسألة علمية فيجيب وهكذا سيرة كثير من العلماء، فلم لا يرقى العلم في هذه الأجواء الهادئة مهما أحاط بها من ظروف

عاصفة؟!

وحتى الذين اكتووا بالسياسة من قرب أو بعد، كالصُّولي والصابي وابن العميد، قد أفادوا العلم والأدب بانغماسهم في الحياة السياسية، وإن احترقوا بنارها.

وما لنا نذهب بعيدًا، وهذا عصر النهضة العلمية والأدبية في أوروبا كانت الأفكار فيه تبحث وتنتج وتبتكر، والجو السياسي حولها أسوأ ما يكون نزاعًا وفسادًا وظلمًا، فلما خطت الأفكار العلمية والأدبية خطواتها كانت هي التي تصلح الجو السياسي، لا أن الجو السياسي يخنقها.

والخلاصة أن الحالة العلمية في أواخر القرن الثالث وفي القرن الرابع، كانت أنضج منها في العصر الذي قبله: أخذ علماء هذا العصر ما نقله المترجمون قبلهم فشرحوه وهضموه؛ وأخذوا النظريات المبعثرة فرتّبوها؛ وورثوا ثروة من قبلهم في كل فرع من فروع العلم فاستغلّوها، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

٢- الترف والبؤس، واللهو والجدّ حيثما نظرنا إلى كل قطر من أقطار العالم الإسلامي في ذلك العصر رأينا الثروة غير موزعة توزيعًا عادلًا ولا متقاربًا، ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح، فجنة ونار، ونعيم مفرط، وبؤس مفرط، وإمعان في الترف يقابله فقدان القوت.

وهذا الترف والنعيم حظّ عدد قليل هم الخلفاء والأمراء ومن يلوذ بهم من الأدباء والعلماء، وبعض التجار؛ ثم البؤس والشقاء والفقر لأكثر الناس. وحتى غِنى الأغنياء في كثير من الأحيان ليس محصَّنًا بالأمان، فهو عرضة لغضب الأقران أو غضب ذي السلطان الأعلى، فيصادَرون في أموالهم، ويصبح حالهم أشدّ بؤسًا من فقير نشأ في الفقر؛ وقد مرّت بنا أمثلة من هذا القبيل.

والآن نصوّر بعض صور توضح الحالين.

فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم واسعة كل السعة، مترفة كل الترف؛ فابن المعتز يصف في ديوانه أبنية للخليفة المعتضد اسمها الثريا فيقول:

حللْـت «الثريـا» خـير دارٍ ومنـزل ... فـلا زال معمـورًا ويُـورك مـن قَـصر
فلـيس لـه فـيما بنـى النـاس مـشبِهٌ ... ولا مـا بنـاه الجـنّ في سـالف الـدهر

* * *

جِنـانٌ وأشـجار تلاقـت غـصونها ... فـأورقن بـالأثمار والـورق الخـضر
تـرى الطـيرَ في أغـصانهن هواتفًـا ... تَنَقَّـلُ مـن وَكـرٍ لهـن إلى وكـر

* * *

وبنيـان قـصرٍ قـد علـت شُرُفاتُـه ... كـصفٍّ نـساءٍ قـد تـربّعن في الأزر
وأنهـار مـاء كالـسلاسل فُجِّـرَتْ ... لترضـع أولاد الريـاحين والزهـر
وميـدان وحـشٍ تـركض الخيـل وسـطه ... فيؤخـذ منهـا مـا يـشاء عـلى قَـدْر
عطايـا إلـهٍ مـنعم كـان عالمًـا ... بأنـك أوفى النـاس فـيهن بالـشكر

واشتهر من الأبنية كذلك قصر «التاج»، ابتدأ في بنائه المعتضد أيضًا، ثم عدل عنه وبنى «الثريا»؛ فلما تولّى ابنه المكتفي أتمّ بناء «التاج»، واستعمل في بنائه الآجرّ من قصر كسرى الذي بقي منه إلى الآن إيوانه. وكانت وجهة التاج مبنية على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين، وكانت غاية في السعة والضخامة.

وكلا البناءين: التاج والثريا، كانا في الجانب الشرقي من بغداد[1]. وقبل ذلك

(١) انظر معجم ياقوت في مادتي الثريا والتاج.

عظم البناء في سامرَّا، وبنى المتوكل فيها الأبنية الضخمة، حتى ليذكر ياقوت ثبتًا ببيان ما بناه ونفقاته فيقول:

«ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل، فمن ذلك القصر المعروف بالعَرُوس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم؛ والجعفري عشرة آلاف ألف درهم؛ والغريب عشرة آلاف ألف درهم؛ والشيدان عشرة آلاف ألف درهم؛ والبرج عشرة آلاف ألف درهم؛ والصبح خمسة آلاف ألف درهم؛ والمليح خمسة آلاف ألف درهم؛ وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم» إلى آخر ما ذكر، إلى أن قال: «فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف درهم؛ وقد قال عليّ بن الجهم في وصف الجعفري أحد قصور المتوكل:

ومـا زلـت أسـمع أن الملـو ... ك تبنـي عـلى قـدر أقـدارها
وأعلـم أنّ عقـول الرجـا ... ل تُقـضى عليهـا بآثارهـا
فلـما رأينـا بنـاء الإمـام ... رأينـا الخلافـة في دارهـا
بـدائع لم ترهـا فـارسٌ ... ولا الـروم في طـول أعمارهـا
وللـروم مـا شـيَّد الأولـون ... وللفـرس آثـار أحرارهـا
وكنـا نحـسّ لهـا نخـوة ... فطامنْـتَ نخـوة جبارهـا
وأنـشأت تحـتجّ للمـسلمين ... عـلى ملحـديها وكفّارهـا
صُـحُون تـسافر فيهـا العيـون ... إذا مـا تجلّـت لأبـصارها
وقبّـة ملـك كـأن النجـوم ... تـضيء إليهـا بأسرارهـا
نظمـن الفَـسافس نظـم الحـليّ ... لِعُـون النـساء وأبكارهـا
لـو أنّ سـليمان أدّت لـه ... شـياطينه بعـض أخبارهـا

لأيقـــنن أن بنــــي هاشـــم　　تقـــدمها فـــصل أخطارهـــا

وللبحتري قصائد في وصف بركتها ومحاسنها.

وبلغت سامَرّا في الحضارة شأوًا بعيدًا حتى أفسدها وخرّبها الخلاف والعصبية بين أمراء الأتراك، وتحوّل عنها الخلفاء إلى بغداد؛ وكان أول من فعل ذلك المعتضد بالله، فقد حول العُمران إلى بغداد وبنى بها الثريا والتاج.

وقد وصف الخطيب البغدادي قصر المقتدر بالله، الذي تولى من (٢٩٥هـ - ٣٢٠هـ)، بمناسبة زيارة رسول من الروم له، فقال: إنه كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصي، وكذا من صقلبي ورومي وأسْوَد - وهذا جنس واحد ممن تضمه الدار، فدع الآن الغلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول. وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول في الدار... وفتحت الخزائن، والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العروس. وقد علّقت الستور، ونظم جوهر الخلافة في قلاّيات على دُرُج غشيت بالديباج الأسود. ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثر تعجّبه منها؛ وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفّر بحركات قد جعلت لها فكان تعجّب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده... وكان عدد ما علّق في القصور من الستور الديباج المذهبّة بالطرز الذهبية الجليلة، المصوّرة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد، والستور الكبار البضغائية والأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديبقية المطرّزة ثمانية وثلاثين ألف ستر... وأدخل رسل صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبًا وفضة بغير أغشية؛ ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجِلال الديباج بالبراقع الطوال، وكل فرس في يد

شاكري بالبزّة الجميلة. ثم أدخلوا دار الوحش، وكان فيها من أصناف الوحش التي أخرجت إليهم قطعان تقرب من الناس وتتشمّمهم وتأكل من أيديهم؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزّينة بالديباج والوشي، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار، فهال الرسل أمرها؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع: خمسون يمنة وخمسون يسرة... ثم أخرجوا إلى الجوسق المحْدَث، وهي دار بين بساتين، في وسطها بركة رصاص قلْعي[1] حواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة، طول البركة ثلاثون ذراعًا في عشرين ذراعًا، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهّبة.. وحوالي هذه البركة بستان بميادين فيها نخل، وعدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، قد لبس جميعها ساجًا منقوشًا من أصلها إلى حدّ الجمّارة بحلق من شبه مذهبة... وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسًا على خمسة عشر فرسًا، قد ألبسوا الديباج وغيره، وفي أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد في الناورد جنبًا وتقريبًا، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد؛ وفي الجانب الأيسر مثل ذلك.

ثم أخرجوا -بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرًا- إلى الصحن التسعيني، وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل.

ثم وصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في «التاج» مما يلي دجلة، بعد أن لُبِّس بالثياب الديبقية المطرّزة بالذهب، على سرير آبنوس قد فرش بالديبقي المطرّز بالذهب، وعلى رأسه الطويلةُ؛ ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلّقة، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار؛

(١) القلع نوع من المعدن ينسب إليه الرصاص.

وبين يديه خمسة من ولده: ثلاثة يمنة، واثنان يسرة[1].

ولعلّ هذه الصورة خير وصف لقصور الخلفاء في ذلك العصر.

والخلفاء من أول العصر العباسي يعلو كل خليفة ما قبله درجة أو درجات في الترف والنعيم والإمعان في فنون الحضارة، والأغنياء يتبعونهم في ذلك على قدر مواردهم، سائرين على حكم الزمان.

ولذلك لما جاء المهتدي بالله (٢٥٥هـ ٢٥٦هـ)، ونزع نزعته إلى الزهد استُغرب منه ذلك، ولم يطاوعه الناس وسئموا سيرته، وأدّى الأمر إلى قتله.

ذلك أنه جعل مثله الذي يجب أن يحتذى عمر بن عبد العزيز، فحرّم الشراب ونهى عن القيان، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء، وأحسن معاملة الطالبيين، وقلّل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب، وأخرج آنية الذهب والفضة من خزائن الخلفاء فكسرت وضربت دنانير ودراهم، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيت، وذبح الكباش التي كان يناطَح بها بين يدي الخلفاء، وكذلك فعل في الديوك؛ وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها كل يوم عشرة آلاف درهم، فأزال ذلك، وجعل لمائدته وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم.

وكان يتهجّد في الليل ويطيل الصلاة، ويلبس جبّة من شعر.

قال المسعودي: «فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريقة الواضحة، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه».

---

(١) انظر تاريخ الخطيب: ١/ ١٠٠ وما بعدها طبعة مصر.

لما قبضوا عليه قالوا له: أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها؟ فقال: أريد أن أحملهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والخلفاء الراشدين! فقيل له: إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وأنت إنما رجالك تركي وخزَري ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم، وإنما غرضهم ما استعجلوه من الدنيا، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة؟!»[1].

ولم يدم في خلافته إلا أحد عشر شهرًا.

وهكذا كان تيار الترف شديدًا جارفًا حتى ليكتسح من وقف في سبيله.

وقد أنشأ عضد الدولة البويهي بستانًا بلغت النفقة عليه وعلى سَوْق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم[2].

والوزير ابن مقلة يربّي الحيوانات في قصره ويعنى بها أكثر عناية، «فكان له بستان عظيم عدة أجربة، شجر بلا نخل، عمل له شبكة إبريسم، وكان يفرّخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر، كالقماري والدّبّاس والهزَار والببّغ والبلابل والقَبَج؛ وكان فيه من الغزلان والنعام والأيل وحمر الوحش. وبُشر مرة بأن طائرًا بحريًا وقع على طائر بري، فباض وفقس، فأعطى من بشّره بذلك مائة دينار»[3].

«والوزير ابن الفرات كان يملك أموالًا كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف دينار، وكان يستغلّ من ضياعه في كل سنة ألفي ألف دينار وينفقها. وكانت في داره حجرة

(١) مروج الذهب ٢/ ٣٣٨ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن الجوزي في المنتظم.

شراب يوجّه الناس على اختلاف طبقاتهم إليها غلمانهم يأخذون الأشربة والفقّاع والجُلاّب إلى دورهم»[١]؛ وكان ابن الفرات لا يأكل إلا بملاعق البلّور، وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة.

وكان راتب أبي طاهر وزير عزّ الدولة من الثلج في كل يوم ألف رطل. وكانت أم المقتدر يشترى لها ثياب ديبقية يسمونها ثياب النعال، وذلك أنها كانت صفاقًا تقطع على مقدار النعال المحذوّة، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد، ويجعل بين كل طبقتين من الثياب من ذلك المطيب ما له قوام... وكانت نعال السيدة من هذا المتاع، لا تلبس النعل إلا عشرة أيام أو حواليها حتى تخلق وتتفتّق وترمى، فتأخذها الخزّان وغيرهم، فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك»[٢].

«وكان الوزير المُهَلّبي كثير الشغف بالورد؛ روى من شاهده قال: «شاهدت أبا محمد المهلبي قد ابتيع له في ثلاثة أيام وردٌ بألف دينار، فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره، ولها فوارات عجيبة، يُطرح الورد في مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رؤوس الجالسين؛ وبعد شربة عليه، وبلوغه ما أراده منه، أنهبه»[٣].

وانتشرت مجالس الشراب، ووضعت لها القواعد والقوانين والآداب، كالذي فعله «كشاجم» في تأليف كتابه «أدب النديم»، وتفنّنوا فيما يكتب من الشعر على القناني والكاسات[٤]. واعتاد الخلفاء والوزراء والأمراء مجالس الشراب وبالغوا في

(١) ابن خلكان: ١/ ٥٣٠.
(٢) نشوار المحاضرة.
(٣) ياقوت.
(٤) كتب طرفًا من ذلك الموشّى.

الإسراف فيها؛ «يحكى أنه كان للوزير المهلبي ندماء يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، وهم: ابن قريعة، وابن معروف، والقاضي التنوخي، وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها؛ وكذلك كان الوزير المهلبي. فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس، ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه، وهَبُوا ثوب الوقار للعُقار، وتقلبوا في أعطاف العيش بين الخفة والطيش، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوء شرابًا قطربليًا أو عكبريًا، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرّب أكثره، ويرشّ بها بعضهم على بعض، ويرقصون أجمعهم،... فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التزمّت والوقار»[1].

ونذكر هنا ثروة أحد الولاة لدلالتها على مقدار الثروة ونوعها؛ فقد مات في سنة ٣٠١هـ أبو الحسين علي بن أحمد الراسبي عن سن كبيرة، وكان يتقلّد جنديسابور والسوس وماذاريا، ومات أولاذه قبله، وكان له حفدة، فخلّف:

٤٤٥٥٤٧	دينارًا ذهبًا عينًا.
٣٢٠٢٣٧	درهمًا عينًا.
٤٣٩٧٠	مثقالًا وزن الأواني الذهبية.
١٩٧٥	رطلًا وزن الأواني الفضية.
٤٤٢٠	مثقالًا من العود المُطَرَّى.
٥٠٢٠	مثقالًا من العنبر.
٨٦٠	نافجة من نوافج المسك.
١٦٠٠	مثقال من المسك المنثور.
١٣٩٩	مثقالًا من البرمكية (نوع من الطيب).

(١) يتيمة الدهر: ٢/١٠٦.

٣٦٦	مثقالًا من الغالية (نوع من الطيب).
٨٨	ثوبًا من الثياب المنسوجة من الذهب.
١٣	سرجًا.
٢	حجران عظيمان من الياقوت.
٧٠	حبة من اللؤلؤ.
١٣٥	رأسًا من الخيل.
١١٤	من خدم السودان.
١٢٨	من الغلمان البيض.
١٩	خادمًا من الصقالبة والروم.
٤٠	غلامًا بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم.
٢٠٠٠٠	دينار قيمة أصناف من الكسوة.
١٢٨	رأسًا من المهاري والبغال.
١٢٥	خيمة من الخيام الكبار.
١٤	هودجًا.
١٤	صندوقًا من الغضائر الصيني والزجاج المحكم الفاخر.

وخلّف عضد الدولة البويهي ٢.٨٧٥.٢٨٤ دينارًا، ومن الورق والنقد والفضة ١٠٠.٨٦٠.٧٩٠ درهمًا، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلّور والسلاح والمتاع شيئًا كثيرًا[1].

وتفنّنوا في الصناعات الجميلة من أنواع الحلي والدّقة في النسج وزركشة الثياب وأنوع العطور، والنقش والتصوير، وأصناف الأزياء والمأكول والمشروب، والحدائق

(١) الصابي.

والبساتين، والغناء والموسيقى مما يطول شرحه، وكلها يستمتع بها طبقة الأشراف والموسرين.

وبلغوا من الأناقة في المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف، وألّفوا في ذلك الكتب كالموشّى للوشاء، و«حدود الظرف» له أيضًا؛ و«ما يقدم من الأطعمة وما يؤخّر» للرازي، و«ترتيب أكل الفواكه» له أيضًا، و«آداب الحمام» له أيضًا، و«الزينة» لحنين بن إسحاق، و«الهدايا والسنّة فيها» لإبراهيم الحربي، و«النبيذ وشربه في الولائم» لقسطا بن لوقا إلخ؛ فقال الموشّي: «اعلم أن من كمال أدب الأدباء، وحسن تظرّف الظرفاء، صبرهم على ما تولّدت به المكارم، واجتنابهم لخسيس المآثم، فهم لا يداخلون أحدًا في حديثه، ولا يتطلّعون على قارئ في كتابه، ولا يقطعون على متكلم كلامه، ولا يستمعون على مُسرّ سرّه، ولا يسألون عما وُري عنهم علمه، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه» إلخ. ووضعوا قوانين الظرف تفصيلًا كما وضعوها إجمالًا، فقوانين الظرف في الزيّ، وفي التعطّر، وفي الشراب، وما هو ظرف في الرجال لا في النساء، وما هو ظرف في النساء لا في الرجال، وهكذا.

فإذا نحن جاوزنا العراق إلى غيره من الأقطار رأينا في الشام مثلًا آل حمدان، وعلى رأسهم سيف الدولة مترفين ممعنين في الترف.

«فيحكى أن سيف الدولة لما ورد إلى بغداد وقت توزون؛ اجتاز وهو راكب فرسه وبيده رمحه، وبين يديه عبد له صغير، وقصد الفرجة وألا يُعرف؛ فاجتاز بشارع دار الرقيق على دور بني خاقان وفيها فتيان فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وخدموه؛ ثم استدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها، ثم انصرف؛ ففتحوا الدواة فإذا في الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف، فتعجبوا،

وحملوا الرقعة وهم يظنّونها ساذجة، فأعطاهم الصيرفي الدنانير في الحال والوقت[1] (وهذا هو نظام الحوالات)؛ فسألوه عن الرجل، فقال: ذلك سيف الدولة بن حمدان»[2].

وضرب للصلات خاصة دنانير في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته[3].

ودخل عليه شاعر وطرح من كمّه كيسًا فارغًا ودرجًا فيه شعر استأذنه في إنشاده فأذن له، فأنشده قصيدة أولها:

جِبَاؤك معتاد وأمرك نافذ ... وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكًا شديدًا، وأمر له بألف دينار، فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه[4].

وقصوره كانت ملأى بالجواري وخاصةً من أسرى الروم. «وكانت له جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها، ويشفق من الريح الهابة عليها، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلّها منه» إلخ[5]. وكان يركب في خمسة آلاف من الجند، وألفين من غلمانه ليزور قبر والدته[6].

---

(١) في هذا دليل على استعمال الصكّ أو الشيك في ذلك الوقت.

(٢) الهمداني: مخطوط بباريس.

(٣) اليتيمة: ١/ ٢٨٢.

(٤) ابن خلكان: ١/ ٤٦٢.

(٥) يتيمة: ١/ ١٩-٢١.

(٦) الواحدي على المتنبي.

وكان الملوك والأمراء في مصر في منتهى الترف والنعيم. ففي العهد الطولوني كان الحي الذي فيه الآن جامع ابن طولون وما حوله من القلعة إلى «زين العابدين» يزخر بالمباني الضخمة، وفيها هذا المسجد الفخم والمستشفى الكبير، والقصور الشامخة، والميادين الفسيحة، وآيات الفن؛ فقد كان بجوار جامع ابن طولون ميدان فسيح، فجعله خمارويه بن أحمد بن طولون كله بستانًا بديعًا، زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وحمل إليه من البلدان المختلفة كل صنف من الشجر المطعّم وأنواع الورد؛ وكان من بِدْعه أنه كاس أجسام النخل نحاسًا مذهبًا، وجعل بين النحاس والنخل مواسير من الرصاص يجري فيها الماء، فكان الماء يخرج من النحاس الملبس في النخل فينحدر إلى فساقي، ويفيض الماء من الفساقي إلى مجار تسقي سائر البستان؛ وهندس البستان هندسة بديعة، فعمل من الرياحين كتابة مكتوبة في البستان يتعاهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة؛ وعمل في البستان برجًا من خشب الساج منقوشًا ومطعمًا، وسرّح فيه أصناف الحمام وأصناف الطيور المغرّدة، وجعل في البرج أوكارًا لأفراخها، وعيدانًا مثبتة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت، حتى يجاوب بعضها بعضًا بالمناغاة؛ وسرّح في البستان الطواويس والدجاج الحبشي ونحو ذلك؛ وعمل فيه مجلسًا سمّاه دار الذهب، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف من خشب صوّرت فيه صورته، والمغنّيات التي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق، ولوّنت أجسامها بألوان تشبه ألوان الثياب من الأصباغ العجيبة. فكان هذا القصر من أعجب ما بني في الدنيا.

وعمل فيه فسقية ملئت من الزئبق، وطُرح عليه فرش ملئ بالهواء وشدَّ بزنانير من حرير في حلق من الفضة؛ فينام أحيانًا عليه فيرتج ارتجاجًا ناعمًا؛ وكان يرى له في الليالي المقمرة منظر عجيب إذا ائتلف نور القمر بنور الزئبق.

وجعل في ناحية من نواحي القصر دارًا للسباع، لكل سبع بيت، ولكل بيت باب يفتح من أعلاه، ولكل بيت طاقة صغيرة يدخل منها الرجل الموكل به؛ وفرش بيوت السباع وما حولها بالرمل يجدد من حين إلى حين.

وأكثر من الخدم، ودَّرب كثيرًا منهم على التفنن في الطهي وتنويعه. واشتهر عبيد مصر إذ ذاك بحسن الطهي كما عودهم خمارويه؛ فكان الناس يأتون من مختلف الأقطار لشرائهم لحسن سمعتهم في هذا الباب.

ولعلَّ أكبر ما يوضح هذا الترف والنعيم زواج «قَطْر الندى» بنت خمارويه. وقد خطبها خليفة المسلمين في بغداد المتعضد بالله العباسي. فتفنن خمارويه وأنفق خزائن الدولة في جهازها يحمله من مصر إلى بغداد، حتى تضعضعت حالة مصر المالية بعد ذلك الإسراف.

فكان من بين هذا الجهاز دَكَّة تتألف من أربع قطع من الذهب، عليها قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلَّق فيه حبة من جوهر لا يُعرف لها قيمة. وكان في الجهاز مائة هاون من ذهب. وقد عمل حساب نفقات الجهاز، فكانت دفعة من نفقاته أربعمائة ألف دينار.

وانتقلت العروس من مصر إلى بغداد، والشقّة بينهما بعيدة. فأمر خمارويه فبنى على رأس كل مرحلة من مصر إلى بغداد قصرًا تنزل فيه قَطْر الندى. وكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا أتمت مرحلةً وجدتْ قصرًا قد فُرش، وأُعدَّ بكل أنواع المعدات، فكأنها في هذه الرحلة الطويلة في قصر أبيها حتى قدمت بغداد في أول المحرم سنة ٢٨٢هـ[1].

(١) انظر تفصيل ذلك في خطط المقريزي، والنجوم الزاهرة.

وثروة آل الجصَّاص في العهد الطولوني كانت تقدر بملايين الدنانير، ويحكي أحدهم وهو الحسن بعبد الله الجَصَّاص -وكان من أعيان الثجار في الجواهر- سبب ثروته فيقول: «كان بدء يساري أني كنت في دهليز أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، وكنت وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون إليه، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصي به، فخرجتْ إليَّ قهرمانة لهم في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه، كل حبة تساوي مائة ألف دينار عندي؛ قالت: نحتاج أن تخرط هذه حتى تصغر فنجعلها في آذان اللعب وفي قلائدها. فكدتُ أطير، وأخذتها وقد قلت: السمع والطاعة. وخرجت في الحال وجمعت التجار، واشتريت مائة حبة من النوع الذي طلبتْه.. وقامت عليَّ المائة حبة بدون المائة ألف درهم، وأخذت منهم جوهرًا بمائتي ألف دينار»[1]..

وفي العهد الفاطمي كان الترف أنعم وأضخم وأفخم. تقرأ في «خطط المقريزي» وصف خزائن الفاطميين وحياتهم في القصور، وتفننهم في أدوات الترف والنعيم فيأخذك العجب العاجب، فيقول: «إنه كان للخليفة خزانتان: ظاهرة؛ وفيها الملابس التي ينعم بها على الناس؛ وباطنة وهي الخاصة بلباس الخليفة، ويتولاها امرأة تنعت بزين الخُزَّان، وبين يديها ثلاثون جارية، فلا يغير الخليفة أبدًا ثيابه إلا عندها... وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطئ الخليج يعنى أبدًا فيه بالنسرين والياسمين، فيحمل في يوم منه شيء في الصيف والشتاء لا ينقطع أبدًا برسم الثياب والصناديق.

ولما كشف حاصل الخزائن الخاصة للعاضد بالقصر كان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشَّى ومرصَّع، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة، وغير ذلك

(١) فوات الوفيات: ١/ ١٣٨.

من ذخائر عظيمة الخطر[١].

وفي أيام شدة المستنصر أخرج من بعض خزائن القصر صندوقٌ كِيلَ منه سبعة أمداد زمرد؛ فسأل بعض من حضر من الوزراء الجوهريين: كم قيمة هذا الزمرد؟ فقالوا: إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجودًا، ومثل هذا لا قيمة له!... وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقلِّ من ثمانية آلاف دينار فصاعدًا؛ وأخرج ألف ومائتا خاتم ذهبًا وفضة من سائر أنواع الجواهر المختلف الألوان والقيم والأثمان... وأحضرت خريطة فيها نحو وبية جواهر، وأحضر الخبراء من الجوهريين فذكروا أن لا قيمة لها ولا يشتري مثلها إلا الملوك، فقوِّمت بعشرين ألف دينار. وأخرج طاووس ذهب مرصَّع بنفيس الجواهر، عيناه من ياقوت أحمر، وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب، على ألوان ريش الطاووس؛ وديك من الذهب له عرف مفروق كأكبر ما يكون من أعراف الديوك من الياقوت الأحمر، مرصَّع بسائر الدرر والجوهر، وعيناه ياقوت؛ وغزال مرصَّع بنفيس الدر والجوهز، وبطنه أبيض قد نظم من درٍّ رائع. إلخ إلخ[٢]. ونحو هذا ذكر المقريزي في خزائن العرش والأمتعة، وخزائن السلاح والسروج والخيم والشراب والتوابل والبنود.

ورووا أن المعز لدين الله فاتح مصر لما خرج من بلاد المغرب أخرج معه أموالًا كانت له بها، وأمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين. وكان معه مائة جمل عليها هذه الطواحين من الذهب. وأمر المعز بها حين دخل إلى مصر فألقيت على باب قصره، ولم تزل على باب القصر إلى أن كان زمن الغلاء في أيام المستنصر، فلما ضاق الناس بالأمر أذن لهم أن يبردوا منها بمبارد، وغرَّهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها، فأمر

(١) المقريزي: ١/ ٤١٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك في المقريزي: ١/ ٤١٤ وما بعدها.

بحمل الباقي إلى القصر، فلم تُر بعد ذلك.

وقد عمل المعز عضادتي باب من أبواب قصره من تلك الأرحية، واحدة فوق أخرى، فسمي باب الذهب، وسُميت القاعة التي يدخل إليها من هذا الباب قاعة الذهب[١].

ولما دخل صلاح الدين القصر الكبير للخلفاء الفاطميين، وجد فيه اثني عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وولده[٢].

ومهما بالغ المقريزي ومن نقل عنهم في وصف غناهم، فإن الأساس صحيح وهو غني القوم، وإمعانهم في الترف إمعانًا يزيد عما وصل إليه العباسيون أيام الرشيد.

«وكان إقطاع الوزير ابن كلّس «وزير العزيز بالله» مائة ألف دينار في السنة، ووجد للوزير المذكور من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار، وبزّ من كل صنف بخمسمائة دينار»[٣].

ويصف لنا عمارة اليمنى دارًا بناها ابن رُزِّيك الوزير الفاطمي فيقول:

فتَمَـــلَّ دارًا شـــيَّدتها همـــة ... يغـــدو العـــسير ببابهـــا متيـــسِّرا

جَمَّلتهـــا وتجملـــت مـــصرٌ بهـــا ... لمـــا علـــت بـــك عـــزة وتكـــبُّرا

وسـقيتَ مـن ذَوْب النُّـضار سـقوفها ... حتـــى لكـــاد نـــضارها أن يقطـــرا

---

(١) المقريزي: ١/ ٤٣٢، ٣٨٥.

(٢) ١/ ٣٨٤.

(٣) ابن خلكان: ٢/ ٤٩٩.

لم يبد فيها الروض إلا مزهرا ... والنخل والرمان إلا مثمرا
وبها من الحيوان كل مشهَّر ... لبس الوشيج العبقري مشهَّرا
وكأن صولتك المخوفة أمنت ... أسرابها ألا تراع وتذعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعًا ... زفَّت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيَّرًا ومسهَّمًا ... ومنمنمًا ومدرهمًا ومدنَّرا
والعاج بين الآبنوس كأنه ... أرض من الكافور تنبت عنبرا

* * *

قد كان منظرها بهيًّا رائقًا ... فجعلتها بالوشي أبهى منظرا
ألبستها بيض الستور وحمرها ... فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
فمجالس كسيت رقيًا أبيضا ... ومجالس كسيت طميًا أصفرا
لم يبق نوع صامتٌ أو ناطق ... إلا غدا فيها الجميع مصوَّرًا

...إلخ.

وبعد؛ فقد كان المال وفيرًا كثيرًا، والترف والنعيم بالغًا أقصاه في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والخاصة؛ أما الشعب فأكثره بائس فقير.

قد كان هناك طبقتان متميزتان كل التميز، فالخليفة ورجال دولته وأهلوهم وأتباعهم طبقة الخاصة، وهم عدد قليل بالنسبة لمجموع الأمة، وبقية الناس -وهم الأكثر- طبقة العامة من علماء وتجار وصناع ومزارعين ورعاع، وأغلب هؤلاء فقراء إلا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء.

ذلك أن أكبر مصدر للمال هو الجزية والخراج، وهذه تدخل في بيت المال تحت

سلطة الخلفاء ومن إليهم، وينفق منها على مصالح الدولة؛ وما بقي -وهو كبير- يصرف في رغبات الخلفاء والأمراء: من هبات للشعراء والمدَّاح، وشراء ما يعرضه تجار الجواهر، وتجار الجواري والتحف، وجوائز للمضحكين. والكريم منهم يمد الموائد لفقراء الشعب ويطعمهم ويكسوهم، فألوف الناس تأكل على الموائد وتنال صدقاتهم؛ فلؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين يفرق في اليوم اثني عشر ألف رغيف مع قِدَر الطعام، فإذا دخل رمضان أضعف ذلك، ووقف هو بنفسه ليفرقه[١]؛ وكان عليُّ بن عيسى -وزير المقتدر- يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار[٢]؛ وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات أكثرهم مائة دينار في الشهر، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك[٣].

لهذا كله كانت كل أنظار الناس موجَّهة إلى الخلفاء والأمراء؛ فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا في خدمتهم؛ والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه إلا في مديحهم؛ والتجار إن وقع شيء ثمين في يدهم من جوهر أو جوار لا يجدون نفاقًا لها إلا في قصورهم؛ والصناع إذا أحسنوا صناعة شيء فهم مقصدهم -أما سائر الشعب ففقير بائس قلَّ أن يجد الكفاف! فالعلماء إذا بعدوا عن القصور عزَّ قوتهم، والشعراء لا يشعرون لأنفسهم ولا لعواطفهم وإنما يشعرون للمال يَنْشدونه من يد الخلفاء والأمراء؛ ولهذا كان أكثر شعرهم مديحًا، والفنانون والتجار كذلك. وكان أكثر مديح الخلفاء والأمراء بالكرم والسخاء؛ لا بالعدل والحزم وضبط الأمور.

فإذا نفد مال الخلفاء والأمراء صادروا الأغنياء ليسلبوهم مالهم، ثم يوزعونه

---

(١) المقريزي: ١/ ٨٥.

(٢) تاريخ الوزراء: ٣٢٣.

(٣) ابن خلكان: ١/ ٣٧٢.

على شهواتهم وأتباعهم. فنشأ عن هذا إخفاءُ الأموال والتظاهر بالفقر، وهربُ بعيدي النظر من التقرب من الخلفاء وذويهم، ونشأ في الأدب العربي كثير من الشعر والنثر يحمد الفقر والبعد عن البلاط[1]، كما نشأ شيوع التصوف والميل إليه.

كان بجانب هذا الغنى المفرط، والإمعان في اللذائذ، فقر مدقع يقع فيه العلماء وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفاء والأمراء ومن إليهم.

هذا «عبد الوهاب البغدادي المالكي» فقيهٌ أديبٌ شاعرٌ له المصنفاتُ الرائعةُ في الفقه، لم يكن في المالكيين أفقه منه في زمنه؛ ولما نزل معرَّة النعمان في رحلته أضافه أبو العلاء وقال فيه:

والمالكيُّ ابن نصرٍ زارَ في سفرٍ ... بلادنا فحمِدْنا النَّأيَ والسفرا
إذا تفقَّه أحيا مالكًا جَدلًا ... وينشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيلَ إنْ شعرا

هذا كله تضيق به المعيشة في بغداد حتى لا يجد قوتَ يومه، ويخرج عنها طالبًا للرزق؛ ولما شيَّعه أكابرها قال لهم: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم»؛ ثم أنشأ يقول:

سلامٌ على بغداد في كل موطنٍ ... وحق لها مني سلامٌ مضاعَفُ
فوالله ما فارقتُها عن قِلى لها ... وإني بشطَّيْ جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليَّ بأسْرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخِلٍّ كنت أهوى دُنُوَّه ... وأخلاقُه تنأى به وتخالف

فلما وصل إلى مصر، مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها، فزعموا أنه

(١) انظر العقد الفريد، الجزء الأول في باب السلطان.

. قال وهو يتقلب: «لا إله إلا الله، إذا عشنا متنا»[١].

وهذا أبو حيان التوحيدي البغدادي، وهو ما هو في علمه الواسع وأدبه الفياض، وفلسفته، وبلاغته، وتصوفه، واتصاله بالوزراء والعلماء، وكدِّه في الحياة البوراقة ونسخ الكتاب، وتآليفه الكثيرة؛ كل هذا ويقول محدثًا عن نفسه: «ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدِّين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرِّ أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم»[٢].

.ولما أعيته الحيل تحوَّل طلبه وملقه ورياؤه ونفاقه إلى غيظ من الناس وحقد عليهم، فأحرق في آخر أيامه كتبه، وقال: «إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة عندهم، ولمدِّ الجاه عندهم، فحُرمت ذلك كله».

وقد ملأ كتابه «الإمتاع والمؤانسة» شكوى من الفقر ومن سوء الحال، ورفع صوته إلى الوزراء والأغنياء، فعاد من ذلك كله صفر اليدين.

وهذا أبو سليمان المنطقي، أعقل عقلاء بغداد وأوسعهم نظرًا، وأعمقهم فكرًا، ومن اطلع على الفلسفة اليونانية، فأدرك أسرارها، وعرف مراميها وأغراضها، مع استقلال في الفكر، وشخصية ممتازة في الحكم، وكان أعور، وكان به برص منعه من الاتصال بالناس، وحمله على لزومه منزله، فلم يتصل به إلا تلاميذه الذين عرفوا قدره، ولم يجدوا بغيتهم عند غيره -كان فقيرًا، وقال فيه أبو حيان، وهو من تلاميذ:

---

(١) ابن خلكان: ١/ ٤٣١.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ١/ ٣١.

«إن حاجته ماسة إلى رغيف، وحولُه وقوتُه قد عجزا عن أجرة مسكن، وعن وجبة غدائه وعشائه»، فلما مَنَّ عليه الوزير ابن سعدان بمائة دينار، سرَّه ذلك غاية السرور، وترفَّل وتحنَّك.

وهذا أبو علي القالي البغدادي، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس، حتى اضطر أن يبيع بعض كتبه، وهي أعز شيء عنده، فباع نسخته من كتاب «الجمهرة» وكان كَلِفًا بها، فاشتراها الشريف المرتضى، فوجد عليها بخط أبي علي:

أَنِست بها عشرين حَوْلًا وبعتها ... فقد طال وَجدي بعدها وحنيني

وما كان ظنِّي أنني سأبيعها ... ولو خلَّدتني في السجون ديوني

ولكنْ لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهلُّ جفوني

فقلت ولم أملك سوابقَ عَبْرَةٍ ... مقالة مكوي الفؤاد حزين

«وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك ... ودائعَ من ربٍّ بهن ضنين»

وهذا أبو العباس المعروف بابن الخباز الموصلي، كان من كبار النحويين والأدباء، قال في خطبة كتابه المسمى «بالفريدة في شرح القصيدة»: «ومن علم حقيقة حالي عذرني إذا قصرت، فإن عندي من الهموم ما يزع الجنان عن حفظه، ويكف اللسان عن لفظه:

ولو أن ما بي بالجبال لهدَّها ... وبالنار أطفاها وبالماء لم يَجُر

وبالناس لم يحيوا وبالدهر لم يكن ... وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يَسْرِ

وأنا أسأل الله العظيم أن يكفيني شر شكواي، وألا يزيدني على بلواي، فإني كلما أردت خفض العيش صار مرفوعًا، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعًا، والله المستعان في كل حال، ومنه المبدأ وإليه المآل».

وهذا الزمخشري يقول:

ومما شجاني أنَّ غُرَّ مناقبي ... يغنِّي بها الركبان بين القوافل

وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي ... وسارت مسير النيِّرات رسائلي

وكم من أمالٍ لي وكم من مصنَّف ... أصاب بها ذهني مَحَزَّ المفاصل

غنيٌّ من الآداب لكنني إذا ... نظرتُ فما في الكفِّ غير الأنامل

فيا ليتني أصبحت مستغنيًا ولم ... أكن في خوارزمٍ رئيس الأفاضل

ويا ليتني مُرْضٍ صديقي ومُسْخِطٌ ... عدوي وأني في فهاهة باقل

وما حق مثلي أن يكون مضيَّقًا ... وقد عظمت عند الوزير وسائلي

فلا تجعلوني مثل همزة واصل ... فيسقطني حذف ولا رأء واصل

فكل امرئ أمثاله عدد الحصا ... وهاتِ نظيري في جميع المحافل

وهذا الأبيوردي الشاعر الفقيه، حكى الخطيب البغدادي عنه أنه مكث سنتين لا يقدر على جُبَّة يلبسها في الشتاء، ويقول لأصحابه: «بي علَّةٌ تمنعني لبس المحشو». يريد بالعلَّة: علَّة الفقر.

وهذا الخطيب التبريزي كان له نسخة من كتاب «التهذيب في اللغة» للأزهري في عدة مجلدات أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة، فدُل على أبي العلاء المعري، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى معرَّة النعمان، ولم يكن له من المال ما يستأجر به ما يركبه، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثَّر فيها البلل، ومن شعره:

فمن يسأمْ من الأسفار يومًا ... فإني قد سئمت من المُقَام

أقمنا بالعراق على رجالٍ لئام يتمنون إلى لئام

وحكى لنا أبو حيان التوحيدي حادثة انتحار فظيعة فقال: «شاهدنا في هذه الأيام شيخًا من أهل العلم ساءت حاله، وضاق رزقه، واشتد نفور الناس عنه، ومقتُ معارفه له، فلما توالى عليه هذا دخل يومًا منزله، ومدَّ حبلًا إلى سقف البيت واختنق به؛ فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجَّعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه كل متصرف».

وأخذ أبو حيان وأصحابه يتجادلون في أن له الحق في الانتحار أو لا[1]. هذا شأن العلماء؛ وعامة الشعب كانوا أسوأ حالًا؛ ذلك لأنَّ النظام المالي للدولة كان نظامًا سيئًا؛ فنفقات البلاد قد بلغت حدًّا لا يطاق من الإسراف والبذخ وصنوف الترف؛ وجباية الخراج وسائر الضرائب تباع لأشخاص على سبيل الالتزام، فيعسفون بالناس حتى يبتزوا منهم أضعاف ما دفعوا؛ والقضاء قد اختلَّ بتدخل الحكام وانتشار الرشوة؛ والجيش قد انقسم إلى شُعب مختلفة من ترك ودَيْلم ومغاربة وغيرهم، وكلُّ فرقة تتعصب لجنسها، وتضمر العداء لغيرها، والسلطة مضطرة لإنفاق المال الكثير لاسترضاء هؤلاء وهؤلاء؛ والمناصب الحكومية ليست في استقرار، فاليوم يولَّى وزير، وغدًا يُصادَر، ولكل وزير أعوانه يحظون بتوليته ويُعْسَف بهم بعزله؛ وغير الوزراء شأنهم أهون.

كل هذا سبَّب فسادَ النظام المالي، واستتبع فقر الشعب واضطرابه وكثرة ثوراته.

وظاهرة أخرى نراها في الفنون، وهي أنها كانت لا تنمو إلا في بلاط الخلفاء والأمراء، فلم يكن الشاعر يشعر لنفسه إلا قليلًا، ولا الفنان يتفنَّن لنفسه إلا نادرًا،

---

(١) المقابسات: ص٢١٩.

فكلهم يقصد خليفة أو أميرًا يعرض عليه سلعته من شعر أو فن؛ ولذلك تلوَّن الشعر والنثر والفن بلون الاستجداء كثيرًا؛ لأن العصر لم يكن عصرًا ديمقراطيًّا يستطيع فيه أن يعيش الفنان لنفسه أو للشعب، كما هو الشأن في العصور الحديثة؛ بل كان عصرًا أرستقراطيًّا لا ينعم فيه إلا الأرستقراطيون ومن شاء أن يعيش على موائدهم، بل من شاءوا هم أن يؤكلوه من موائدهم؛ ولذلك إذا أحصيت الأدب الذي قيل في المديح، رجحت كفَّته جدًّا على الأدب الذي قيل لباعث نفساني.

وكذلك العلماء كانوا قسمين: قسمًا يتصل بالخلفاء والأمراء أو يشتغلون في مناصب الدولة كالخطابة والقضاء، وهؤلاء ميسورون نسبيًّا؛ ولذلك نرى كثيرًا من تآليف العلماء في هذا العصر إنما أُلفت بأمر وزير أو أمير أو نحوه، وصدَّره باسمه، ونَوَّه فيه بذكره؛ وأما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالبًا لا يكادون يجدون ما يسد رمقهم كما رأينا.

نشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة: ترف لا حدَّ له في بيوت الخلفاء والأمراء وذوي المناصب، وفقر لا حدَّ له في عامة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأغنياء؛ ثم المظاهر التي تنتج عادةً من الإفراط في الترف كالتفنن في اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس، وكل المظاهر التي تنشأ عن الفقر كالحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة. وكان من أثر هذا الفقر أيضًا انتشار نزعة التصوف، فالفشل في الحياة قد يُسْلم صاحبه إلى الزهد، وإقناع النفس بأن نعيم الدنيا زائل، وإذا حُرِم الدنيا فليطلب الآخرة. كما كان من آثاره انتشار الدجل والتخريف وتعلق الناس بالأسباب الموهومة في الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة؛ فتنجيم واعتقاد في الطوالع التي تسعد وتشقي، وانصراف إلى الكيمياء التي تقلب النحاس والقصدير ذهبًا، والالتجاء إلى دعوات

الأولياء لعلَّ دعوتهم تتحقق فينقلبَ فقرهم غنى، وهذا إلى الاعتقاد في السحر والطلَّسمات والبحث عن الكنوز المخبوءة؛ ونحو ذلك.

وعلى الجملة فالحياة المالية مضطربة أشد الاضطراب، فمع سوء التوزيع والاختلاف الشديد بين درجة الغنى والفقر، والبذخ وشدة الحجة، نرى عدم الطمأنينة على المال من عدم احترام المِلْكية، وذلك بسبب شهوات الحكام وطمعهم فيما في أيد الناس؛ فالوزير إذا عُزل صادر أمواله من يخلفه، والتاجر الكبير الثَّري عرضة لمصادرة الوالي له طمعًا في ماله، والغني إذا مات كانت أمواله عرضة للسلب والنهب، إما بادعاء أن ليس له ورثة معروفون ووضع العقبات في سبيل إثبات الوراثة، أو المجابهة بالمصادرة من غير ذلك أسباب. فالإخشيد في مصر كان إذا توفي قائد من قواده أو كاتب من كتَّابِه تعرض لورثته، وأخذ منهم وصادرهم؛ وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير.

والوزير المهلبي لما مات قبض معز الدولة تركته وصادر عياله، وكذلك فُعل بابن العميد؛ وهكذا. ثم إن اضطراب الحالة المالية وعدم أمن الناس على أموالهم يُنتج حتمًا عدم انتظام الدخل والخرج فتسوء حالة الدولة، فيعالجونها بفرض الضرائب القاسية، والإمعان في المصادرات والنهب لكثرة ما يُطلب من نفقات الجيوش وأمثالها، فيكون ذلك علاجًا يضاعف المرض. وهو ما حدث فعلًا، وكلما ساءت الحال كثر العزل والتولية، وقُرِّب إلى الخلفاء والسلاطين مَن ضمن تعادل الميزانية، وإنما يضمن ذلك بالعسف الذي يئول إلى الخراب.

كان الناس طبقات مختلفة، طبقة تعتز بشرفها نسبها ودمها، من ذلك العلويون والعباسيون، وكلاهما معتز بالقرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فالأوَّلون يعتزون بالنسبة لأولاد عليٍّ من فاطمة؛ والآخرون للعباس، وبينهما حزازات غالبًا.

ويفخر الأولون بأنهم أقرب نسبًا، ويعتز الآخرون بالخلافة في أيدهم؛ وكان ذلك كله -على كل حال- مصدرًا للاعتزاز ومبعثًا لتقدير الناس، وكانت تُجْرَى عليهم أرزاق خاصة، وتُسند إليهم بعض المناصب الرفيعة كنقابة الأشراف.

ومن المعتزين بالنسب من كان يعتز بأصله من أنه من البيوتات القديمة، كأولاد المهلب بن أبي صفرة الأمير الأموي الكبير، وكانت لهم في هذا العصر العباسي دُور بالبصرة؛ وتولَّى الوزارة منهم لعضد الدولة البويهي الوزير المهلبي، وسيأتي ذكرُه؛ وكأولاد البَنويّين وهم أبناء الخراسانيين الذي حاربوا لإسناد الدولة إلى بني العباس- ومنهم من كان يعتز بنسبه الفارسي إلى بيت من بيوت الملك أو البيوتات العظيمة في الفرس كآل بويه؛ وقد يكون من هذه الطبقة الأغنياء؛ وقد يكون منهم من أخنى عليه الدهر بعد العزِّ، فكان فقيرًا يكتفي بالاعتزاز بالنسب.

وهناك طبقة تعتز بمناصب الدولة كالوزراء ورؤساء الدواوين ونحو ذلك. ويعتز بذلك أسرهم وأقاربهم؛ وهؤلاء في هذا العهد كان اعتزازهم وقتيًّا، فيكونون في القمة حينًا، ثم لا يلبثون أن يكونوا في الحضيض حينًا آخر لكثرة ما يعرض لهم من عزل ومصادرة أموال وقتل وتشريد؛ ثم طبقة الأغنياء من الإرث والتجارة والأعمال، وقد كانوا نسبيًّا عددًا محدودًا.

وهؤلاء المعتزون بالمنصب يعيشون في ترف مفرط، وهم الذين نعثر في كتب الأدب والتاريخ على وصف بذخهم وترفهم وإسرافهم؛ ولكنهم لا يمثلون الشعب، ويتبعهم الأوساط يقلدونهم على قدر استطاعتهم، ويطمحون إلى أن يحذوا حذوهم ما أمكنهم دخلهم.

وبجانب ذلك اعتزاز بالعلم أو الدين، ولكنه اعتزاز في أوساط خاصة؛ فالعلماء

يعتز بهم أمثالهم وتلاميذهم ووسطهم المحدود، وهم يتعزّون عن فقرهم بهذا الاعتزاز الأدبي. ورجال الدين من الصوفية والوعاظ والفقهاء كذلك يعتزون في أوساطهم الخاصة، وعند العامة الذين يلتمسون منهم البركة. ثم سائر الشعب بعد ذلك فقير لا يعتز بمال ولا نسب ولا جاه، ويصفهم ابن الفقيه بأنهم «زَبَد جُفاء، وسيل غثاء، لُكَع ولُكَاع، وربيطة اتضاع، همُّ أحدهم طعامه ونومه».

وليسوا كما قال؛ بل هم عماد الأمة وسوادها الأعظم، ومقياس الرقي الحقيقي لها، وما ذنبهم أن همّهم طعامهم ونومهم وهم يجدّون ثم لا يَجدون! لقد كان التوازن الاجتماعي في هذا العصر مختلًا من الناحية المالية، فلا تقارب، وما نجده من وصف الإمعان في الحضارة والإسراف في الترف والتفنّن في النعيم، إنما هو صف فئة قليلة العدد وهي قد أسرفت في الترف على حساب إمعان السواد الأعظم في البؤس، وفي الناحية الخلقية انحلال بين الأغنياء، وتكبّر وتجبّر من الساسة وأولي الأمر، وذلّة وضعة في الفقراء البائسين؛ وما يروى لنا من عزّة وإباء، وتمسّك بالحق وبالفضيلة، فصفات الأقلّين النادرين.

الرقيق:

كثر الرقيق في هذا العصر كثرة بالغة، وامتلأت القصور به، وكان له أثر كبير في الحياة الاجتماعية، فكثر نسل الجواري واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم كانوا في هذا العصر من نسل السراري؛ قال ابن حزم في «نقط العروس»: «لم يل الخلافة في الصدر الأول مَن أمه أَمَة حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد، ولا وليها من بني العباس من أمة حرة حاشا السفاح والمهدي والأمين، ولم يلها من بني أمية بالأندلس من أمه حرّة أصلًا».

وكثر تعليم الجواري الغناء، واتخذ أصحابهن لهن بيوتًا معدَّة للسماع في الأحياء المختلفة، وكثرت هذه البيوت في بغداد في هذا العصر، حتى قال أبو حيان التوحيدي: «وقد أحصينا -ونحن جماعة في الكرخ- أربعمائة وستين جارية في الجانبين، جانبي بغداد، ومائة وعشرين حرّة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحذف والحسن والظرف والعشرة، هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزّته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت، أو ثمل في حال، أو خلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه»[1].

وهذه المحال العامة للمغنيات كان يتردد عليها الناس للسماع، ولم يتحرَّج منها حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية، فابن فهم الصوفي يسمع مغنية اسمها «نهاية» جارية ابن المغني، وابن غيلان التاجر يسمع غناء «بلور» جارية ابن اليزيدي، وأبو الحسن الجراحي القاضي يسمع غناء «شعلة»، وأبو سليمان المنطقي الفيلسوف الكبير وشيخ أبي حيان يسمع غناء صبي موصلي فتن الناس في عصره؛ وهكذا.

والظاهر من قولهم أن محال الغناء كان منها المتهتّك الذي يناسب المعربدين، ومنها المتحفظ بعض الشيء الذي يناسب المتحفِّظين.

وما روي لنا يدل على أن الغناء في هذا العصر كان بالشعر العربي السهل القريب المعنى السائغ اللفظ والوزن؛ فقد روى أن قِنْوَة البصرية كانت تغني مثلًا:

يـــا ليتنـــي أحيـــا بقُرْبهمـــو ... فـــإذا فقـــدتهم انقـــضى عمـــري

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ١٨٣.

و«سندس» تغنّي:

مجلس صَبّيْن عَمِيدَين ليسا من الحب بِخلْوَين
قد صيَّروا روحيهما واحدًا واقتسماه بين جسمين
تنازعا كأسًا على لذّة قد مزجاها بين دمعين
الكأس لا تحسن إلا إذا أدَرْتها بين محبَّين

و«درة» تغنّي:

لست أنسى تلك الزيادة لّما طرقَتْنا وأقبلت تتثنّى
طرقت «ظَبيةُ» الرصافة ليلًا فهي أحلى مَنْ جَسَّ عودًا وغنّى
كم ليال بتنا نلذّ ونلهو ونُسَقّى شرابنا ونُغَنّى
هجرتنا فيما إليها سبيل غير أن نقول: كانت وكنّا

وإذا بلغت: «كانت وكنا» زلزلت الأرض «فرأيت الجيب مشقوقًا والدمع منهملًا، ومكتوم السرّ باديًا».

و«عَلْوة» تغني في «درب السُّلْق» ببغداد:

بالورد في وجنيك! مَنْ لطمك ومن سقاك المدام، لمْ ظلمك
خَلاّكَ لا تستفيق مِن سُكْر توسع شتمًا وجفوةً خَدَمك
معقربَ الصدغ! قد ثَمِلْتَ فما يمنع من لثم عاشقيك فمكَ
أظلّ من حَيْرة ومن دهش أقول لما رأيت مبتَسمك
بالله يا أقحوان مضحكة على قضيب العقيق مَنْ نظمك

و«روعة» جارية ابن الرضى تغني في الرصافة:

وحقِّ محل ذكرِك من لساني … وقلبي حين أخلو بالأماني

لقد أصبحت أغبطُ كل عينٍ … تعانيها فتسعد بالعِيان

وهكذا شعر سهل ومعان قريبة كلها تدور حول العشق والغرام والهجر والوصال.

وكانوا في هذه المجالس يطربون طربًا صاخبًا، فمنهم من يشقّ إزاره، ومن يضرب بنفسه الأرض، ومن يحملق عينيه، ومن يستغيث، ومن يحوقل[1] الخ، وكانت هذه البيوت تسمى «بيوت القيان»؛ والقينة في اللغة: الأمة مغنية كانت أو غير مغنية، ولكنها في العرف لا تطلق إلا على الأمة المغنية.

ومن هؤلاء القيان من كن يتاجرن بالعشق والغناء، فيوقعن في أحبالهن الشبان الموسرين حتى يستنزفن مالهم ثم يلفظنهم. وقد وصف واصف هذه الحالة أدق وصف فقال: «إن القينة منهن إذا رأت في مجلس فتى له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال مالت إليه لتخدعه... ومنحته نظرها وأشارت إليه بكفها، وغمزته بطرفها، وغنّت على كاساته، ومالت إلى مرضاته، حتى توقع المسكين في حبالها، وتحويه بلطف تملّقها، وتستعين بالمكر والخداع، ثم ترسل إليه من يخبره عن سهرها وقلقها، وتبعث إليه بخاتمها، وخصلة من شعرها، وكتاب قد نمّقته بظرفها، ونقطت عليه قطرات من دمعها، وختمته بالغالية والعنبر... حتى إذا حوت عقله، وسلبت قلبه، أخذت في طلب الهدايا من ثياب وحلي، وشكت من غير ألم، لتتوالى عليها هداياه؛ حتى إذا نفد اليسار، وتلق المال، وأحسّت بالإفلاس أظهرت الملل، وأعلنت

(١) انظر المصدر نفسه.

obeikandl.com

البذل، وتبرّمت بكلامه، وضجرت بسلامه، وأخذت في الجفاء والعتاب، وصرفت عنها هواه، ومالت إلى سواه».

وقد قال أحد الشعراء في مثل هذا الوصف:

صحوت فأبصرت الغواية من رُشدي ... وأيقنت أني كنت جُرت عن القصد
فلا يعشقنْ من كان يعشق قينة ... فما هو منها في سعيد ولا سعد
تودُّك ما دامت هداياك جمّة ... وترفدُك عشقًا ما بقيت أخا رفد
إذا ما رأيت في مجلس من تخاله ... غنيًّا حبته بالتحية والودّ
فذا دأبها حتى يعود من الهوى ... سقيم فؤاد ما يُعيد ولا يبدي
فتقْصد لا من حاجة لِفصادِها ... ولكن لتكليف الهدية في الفصْد
فمن بين خلخال يُصاغ وخاتم ... ومن دملج يُهدَى على أثر العقد
فذا فعلها حتى إذا عاد مفلسًا ... تجنّت وأبدت جانب الهجر والصد
فقولا لمن يهوى القيان تفهّموا ... مقالي فإني قد نصحت لكم جهدي[1]

ونسأل عن هذا جدل في أيهما خير: عشق القيان أو عشق الحرائر؟ فيقول بعض الظرفاء:

ليس عشق الإماء من شكل مِثْلي ... إنما يعشق الإماءَ العبيدُ
صِلْ إذا ما وصلت حرّة قوم ... قد حماها آباؤها والجدودُ

ويقول غيره: «عليك بالقيان فإن لهن فطنًا وعقولًا ليست لكثير من النساء».

(١) الموشّى ص٩٣ وما بعدها باختصار.

وقد كان من أثر الطابع العلمي الذي طبع هذا العصر أن تغرض العلم لهؤلاء الإماء يؤلف فيهن الكتب، فألف ابن بطلان كتابه العلمي في تجارة الرقيق[١]. وتبعه غيره، فذكروا أجناس العالم وأوصاف الرقيق من كل جنس، وما يمتزن به، وما يعاب عليهن، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها، ودلائل الفراسة على حال الغلام أو الجارية، وحيل النخَّاسين، وكيف يسترون العيوب... الخ.

كما فلسفوا الكلام في الحُسن، وحاولوا وضع قواعد للجمال، ووجد من يسمّى «جهابذة النقد» وهم الخبراء في الجمال؛ قال أبو الفرج: «أكثر البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد، يقدمون المجدولة التي تكون بين السمينة والممشوقة، ولابد أن تكون كاسية العظام»... الخ.

وتكلموا في الألوان وحسنها، وقال أبو الفرج الأصفهاني[٢]: «يمازج البياض لونان يزيدانه حسنًا، الحمرة والصفرة؛ فأما الحمرة فتعتري البياض من رقّة اللون وصحة الدم؛ وأما الصفرة فتعتري البيض لاستهتارهن وملازمتهن الكنّ والنعمة والخفض والدعة، وتعتريهن أيضًا لملازمتهن التضمّخ بالطّيب، ويقال إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإن لونها يكون من أول النهار إلى ابتداء العشية يضرب إلى الحمرة، ومن ابتداء العشية إلى آخر النهار يضرب إلى الصفرة» وأفاضوا في ذكر محاسن كل عضو وعيوبه من الشَّعر والجبين والحواجب والعيون والأنوف والخدود والشفاه والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء، والأنامل وتطريفها بالحمرة والسواد، والنحور والصدور والثدي، واختلاف الأذواق في كبرها أو

(١) عنوانه رسالة جامعة لفنون نافعة في شراء الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان الرقيق النصراني، عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، والكتاب مخطوط منه صورة فوتوغرافية في مكتبة الجامعة.

(٢) في كتابه النساء.

صغرها، والخصور والسوق والأقدام، ومزجوا ما قيلَ في كل ذلك من التعبير الدقيق في اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهابذة النقد.

كما تفنَّنوا في دقَّة الفروق بين المغنيات، وفلسفة الغناء، «فعلوه» أحسن ما تكون إذا رفعت عقيرتها، و«نهاية» إذا اندفعت في شدوها، و«بلّور» إذا رجّعت، و«قَلَم» إذا تنوأت في استهلالها، وتضاجرت على ضجْرتها، وتذكرت شجوها الذي قد أضناها وأنضاها، و«سندس» إذا تشاجَت وتدللت وتفَتّلت وتقَتّلت وتكسَّرت.

وتفلسفوا هل الغناء لذّة الحس أو لذة العقل؟ ولم يكون الغناء ألذّ وأطيب إذا سند المغني آخر؟ وهكذا[1].

وكان الرقيق صنفين متميزين، صنف أبيض، وصنف أسود ويشمل الحبشان. فالصنف الأبيض كان من الترك والصقالبة، والأرمن واليونان، وكانت أكثر أسواقه سوق سمرقند ويأتي إليها رقيق تركستان وما وراء النهر والبلغار، وسوق شرق أوروبا وهو يخترق ألمانيا إلى الأندلس، وإلى موانئ إيطاليا وفرنسا إلى الشرق، والصنف الأسود كان يجلب من السودان والحبشة وما إليهما.

وكان الرقيق الأبيض أغلى ثمنًا وأكثر قابلية لتعلّم الفن والموسيقى، وكلما مهرت في فنّها بولغ في ثمنها، وكانت هناك أسواق في كل مدينة كبيرة للرقيق، سوق كبيرة فيها حُجَر يسكنها الرقيق المعرّض للبيع، وهذا شأن الرقيق الشعبي؛ أما الرقيق الخاص الممتاز فيعرضه التجار على الأمراء والأغنياء، أو يعرضونه في بيوتهم الخاصة؛ كما كان أصنافًا من نساء وفتيان ورجال.

وقد قام هذا الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة، وتغلغل في الحياة

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ٨٢ وما بعدها.

الاجتماعية؛ فمنهم من كانوا جنودًا وقوادًا تستعين بهم الدولة في حروبها، حتى لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب، مثل مؤنس في العراق، وجوهر الصقلي في المغرب ومصر، وكافور الإخشيدي بمصر، وسبكتكين في الأفغان.

ومنهن القيان في محال الغناء العامة، ومنهن أمهات الأولاد، وملك اليمين، يتغلغلن في بيوت الخلفاء والأمراء، والأغنياء والأواسط، ومنهن من يقمن في الخدمة في البيت، وقد يبلغن منزلة عالية.

ومن الرجال الأرقَّاء من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم، ومنهم طبقة الخصيان، وقد انتشرت في هذا العصر انتشارًا كبيرًا.

وقد كثر الخصاء في عهد الأمين؛ فقد قالوا إنه بلغ من كلَفه بالخصيان أنه «طلبهم وابتاعهم، وغالى بهم، وصيَّرهم لخلوته في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه»[1].

وقد عقد الجاحظ فصلًا ممتعًا في كتابه «الحيوان» للخصاء وتأثيره في الجسم والصوت والشعر والأعصاب، وفي الذكاء، كما عرض لأصناف الخصيان من السند والحبشة والنوبة والسودان. ويقول: إن الروم أول من ابتدع الخصاء... الخ[2].

وكان الخصاء في البيض والسود، وقلَّ أن كان المسلمون يقومون بالخصاء، ولكنهم يشترونهم بعد أن يُخصَوا، وقد ارتفعت أثمانهم لتعرُّضهم للموت من هذا العمل.

---

(١) الطبري في سيرة الأمين.

(٢) الحيوان جزء أول.

وكثر في عصرنا الذي نؤرخه استخدامهم في بيوت الخلفاء والأغنياء، حرصًا على النساء؛ ومنهم من نبغ في القيادة الحربية، كمؤنس القائد، وفائق قائد السامانيين؛ وبلغ بعضهم منزلة عالية في الإشراف على القصور والحظوة عند الأمراء، كشكر غلام عضد الدولة.

ثم الغلمان في الأوساط المستهترة، حتى وعند بعض الأدباء والعلماء، ونلاحظ ندرة هذا أيام سلطة العنصر العربي في صدر الإسلام. ويحكي الجاحظ أن هذا الولع بالغلمان نشأ في الخراسانيين، إذا كانوا يخرجون في البعوث مع الغلمان، وذلك حين سنَّ أبو مسلم الخراساني ألا يخرج النساء مع الجند؛ خلافًا لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر[1].

فلما جاء هذا العصر نجد الكثير من أحاديث الغلمان في كتب الأدب، وتراجم الرجال والأدباء. ويحدثنا أبو حيان التوحيدي أنه كان في بغداد خمسة وتسعون غلامًا جميلًا يغنون للناس، وأنه كان بها صبي موصلي مغنٍ، ملأ الدنيا عيارةً وخسارة، وافتضح أصحاب النسك والوقار، وأصناف الناس من الصغار والكبار، بوجهه الحسن، وثغره المبتسم، وحديثه الساحر، وطرفه الفاتر، وقده المديد، ولفظه الحلو، ودلّه الخلوب... يسرقك منك، ويردك عليك... فحاله حالات، وهدايته ضلالات، وهو فتنة الحاضر والبادي[2]. كما يحدثنا عن عَلوان غلام ابن عُرس؛ فإنه إذا حضر وألقى إزاره، وحلَّ أزراره، وقال لأهل المجلس: اقترحوا واستفتحوا فإني ولدكم، بل عبدكم لأخدمكم بغنائي وأتقرب إليكم بولائي... لا يبقى أحد من الجماعة إلا وينبض عرقه، ويهش فؤاده ويذكو طبعه، ويفكه قلبه، ويتحرك ساكنه، ويتدغدغ

(١) انظر حضارة الإسلام في القرن الرابع: ٢/ ١٣٥.

(٢) الإمتاع: ٢/ ١٧٤.

روحه إلخ[١].

وتفننوا في أسماء الغلمان بما يدل على مقصدهم، فسموا بـ«فاتن»، و«رائق»، و«نسيم»، و«وصيف»، و«ريحان»، و«جميلة» -هكذا بأداة التأنيث- و«بشرى».

ومن هذا نرى كيف أثَّر الرقيق أثرًا كبيرًا من الناحية الاجتماعية والحربية والمالية والأخلاقية.

الأدب وتصوير الحياة الاجتماعية:

كان النتاج الأدبي في هذا العصر من نظم ونثر صورة صحيحة للحياة الاجتماعية في غناها وترفها من جانب، وفقرها وبؤسها من جانب، وفي اضطراب الشئون السياسية والحياة الاجتماعية، وفي حياة اللهو وحياة الجد، وفي انحلال الأخلاق، وانغماس الأدباء فيها، ونعي بعضهم عليها، إلى غير ذلك من المظاهر؛ ولعل خير ما يمثل أدب هذا العصر كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي.

وربما كان أكبر من يمثل كُتَّاب النثر؛ ابن العميد، وابن عباد، والخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني، وأبو حيان التوحيدي؛ كما كان أكبر من يمثل الشعر، المتنبي، وابن حجاج، والشريف الرضي، وأبو العلاء المعري، والصنوبري.

لقد كان من أعلام الكتَّاب من هم من الطبقة العليا في المجتمع، كابن العميد، وابن عباد، والوزير المهلبي، والخصيبي، والإسكافي وزير السامانيين، ويلحق بهم أمثال إبراهيم بن هلال الصابي الذي كاد يكون وزيرًا.

فهؤلاء بحكم جاههم وعزِّهم وترفهم، كان نتاجهم الأدبي مترفًا يتأنق في فنه؛

(١) المصدر نفسه: ص١٧٨.

فأناقة الملبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنق في الأدب. فأدب هذا العصر تقدم خطوات في السجع والمحسنات اللفظية، والمبالغة البلاغية. فالصابي وابن عباد أفرطا في السجع، وكادا يلتزمانه، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم؛ هذا إلى الإمعان في الاستعارات والمجازات والتشبيهات، وتفننوا في تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطُّرف فيما يصنعون من حليٍّ وأدوات زينة. وإذ كانوا في مركز رئيسي في الحياة الاجتماعية كان طبيعيًّا أن يكون نتاجهم هو المثل يقلَّد ويحتذى، فمن كان أديبًا فقيرًا تشبَّه بهم وحذا حذوهم، وهم بذلك قد خلقوا ذوقًا عامًّا في الأدب يستحسن طريقتهم، فجارى الأدباء هذا الذوق، كما تراه عند الثعالبي في كتبه فيما يُنْشِئ وفيما يَرْوي.

وأبو حيان يصف الصاحب ابن عباد بقوله: «كان كلفه بالسجع في الكلام والقلم، عند الجدِّ والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد. قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك؛ ويضطرب لها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها.

هذا إلى الإمعان في المبالغة كقول الصابي: «وصل كتاب قاضي القضاة بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبته، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته».

ويقول بديع الزمان الهمذاني لرجل طلب إليه نسخة من رسائله: «ولو قدرت جعلت الورق من جلدي، بل من صحن خدي، والقلم من بناني، والمداد من أجفاني».

وإلى السجع والمبالغة ضروب من التزاويق، ككثرة التشبيه والاستعارة من مثل قول الصاحب في وصف مجلس: «قد تفتحت فيه عيون النرجس، وتوردت فيه خدود البنفسج، وفاحت مجامر الأترج، وفتقت فارت النارنج، وانطلقت ألسنة العيدان، وهبَّت رياح الأقداح، ونفقت سوق الأنس، وامتدت سماء الند».

هذا إلى مثل عمل قطع أدبية خالية من بعض حروف الهجاء، أو تقرأ طردًا وعكسًا إلخ.

فهذه التزاويق اللفظية صدى للتزاويق في الحياة الاجتماعية، ونرى كثيرًا من الأدب في هذا العصر شكلًا تنقصه الروح، كما كانت الحياة الاجتماعية المترفة كذلك شكلًا بلا روح.

ويتصل بهذا شيوع المقطوعات الشعرية القصيرة بجانب القصائد الطويلة، ويقابله في الموسيقى الميل إلى ما نسميه «الطقاطيق» بجانب «الأدوار».

ولعل هذا نشأ من كثرة المجالس الأدبية غير الرسمية في منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء، وحبهم للمُلح والتنادر ووصف ما يعرض، فأبيات قصيرة في الغزل تحوي معنى واحدًا رشيقًا، وأبيات فيما يعرض من النوادر: كأبيات في إنسان ساقط يلبس عمامةً سَرِية[1]، وفي إنسان شريف الأصل وضيع النفس[1]، وإنسان تولَّى

---

(١) مثل:

يا من تعمَّم فوق رأس فارغ ... بعمامة مَرَوية بيضاء
حسنت وقُبِّح كل شيء تحتها ... فكأنها نور على ظلماء
لما بدا فيها أطلت تعجبي ... من شر شيء في أجلّ إناء
لو أنني مُكِّنت مما أشتهي ... وأرى، من الشهوات والآراء
لجعلت موضعك الثرى وجعلتها ... في رأس حرٍّ من ذوي العلياء

أقطاعًا فوجدها خربة، وفي المهاداة بالنبيذ، وفي وصف مجلس أنس، وفي شكر على هدية، وفي هجاء بخيل أو ثقيل، وفي صف زهر أو تمر[٢]، وفي معنًى عَرَض، أو حادث حدث[٣] ونحو ذلك. وقد أكثروا من هذه المقطوعات حتى زاحمت

---

(١) مثل:

قل للشريف المنتمي ... للغرِّ من سرواته
آبائه وجدوده ... والزهر من أماته
وهو الوضيع بنفسه ... وعيوبه وهناته
لا تجترين من الفخا ... ر إلى مدى لم تأته
شاد الألى لك منصبًا ... قوَّضت من شرفاته
إن الشريف النفس لي ... ست تلك من فعلاته
والعود ليس بأصله ... لكنه بنباته
وأحق من نكسته ... بالصفع من دوجاته
من مجده من غيره ... وسفاله من ذاته

...إلخ.

(٢) كقوله في وصف تمر:

أما ترى التمر يحكي ... في الحسن للنظَّار
مخازنًا من عقيق ... قد قمعت بنضار
كأنما زعفران ... فيه مع الشهد جاري
يشف مثل كئوس ... مملوءة من عقار

(٣) كالذي يشكو من الزمان حظه؛ فيقول:

في كل يوم لنا في الدهر معركة ... هامُ الحوادث في أرجائها قلق
حظي من العيش أكل كله غصص ... مر المذاق وشرب كله شرق

القصائد[1].

هذه ناحية، وناحية أخرى وهي قوة أثر الرقيق في الناحية الاجتماعية، وانعكاس صورتها في الأدب؛ فقد ملئ أدب ذلك العصر بوصف القيان والجواري البيض والسود والغلمان، حتى لا نكاد نجد شاعرًا إلا وله شعر في هذا الباب.

فقيل الكثير في وصف الجواري البيض وحسنهن، وكان هذا شيئًا مألوفًا، وسموا النساء البيض الحسان الحُمْر؛ وقال شاعرهم:

هِجَانٌ عليها حمرة في بياضها ... يروق بها العينين، والحسن أحمر

وشبهوهن بالنار من أجل ذلك؛ ولكن هَامَ بعض الشعراء بالجواري السود ودافعوا عن حبهنَّ، فأكثر من ذلك الشريف الرضي؛ فقال من قصيدة:

أحبكِ يا لون الشباب فإنني ... رأيتكما في العين والقلب توأما

سواد يود البدر لو كان رقعةً ... بجبهته أو شقَّ في وجهه فما

سكنتِ سواد القلب إذ كنتِ مثله ... فلم أدر من عِز مَنْ القلبُ منكما

وما كان سهم الغين لولا سواده ... ليبلغ حبات القلوب إذا رمى

إذا كنت تهوى الظبي ألَمى فلا تلم ... جنوني عن الظبي الذي كله لَمى

وله قصيدة أخرى في هذا المعنى منها:

لاموا ولو وجدوا وجدي لقد عَذروا ... وذنب من لام ذنبٌ غير مغتفر

لما تمادَوْا على عذلي أجبتهمو ... بعزٍّ معترف لا ذل معتذر

---

(١) انظر نماذج منها كثيرة في كتب الثعالبي.

أهوى السواد برأسي ثم أمقته؟! فكيف يختلف اللونان في نظري

إني علقت سواد اللون بعدكمو علاقة تشمت الظلماء بالقمر

لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت صِبْغ الغرالي على الأجياد والعُذُر

والليل أستر للخالي بلذته والصبح أفضح للساري على غَرر

وللفتى في ضلال الليل معذرة وما له في الضحى إن ضلَّ من عذر

وكيف يذهب عن قلبي وعن بصري من كان مثل سواد القلب والبصر

وقبله استوفى هذه المعاني ابن الرومي في قصيدة طويلة منها:

أكسبها الحسنَ أنها صُبِغت صِبغة حَب القلوب والحدق

يفتر ذاك السواد عن يقق من ثغرها كاللآلئ النسق

كأنها والمزاح يضحكها ليل تفرى دجاه عن فَلَق

وقال السَّلَامي:

يا رُبَّ غانية بيضاء[1] تصحبني من العتاب كتوسًا ليس تنساغ

أشتاق طرتها أم صدغها ومعي من كلها طرر سود وأصداغ

وقد قالوا: إن ابن سكّرة الشاعر قال في قينة سوداء اسمها «خمرة» عشرة آلاف بيت إلخ إلخ.

كما تفننوا في وصف القيان وغنائهن وأكثروا، وزعيمهم في ذلك ابن الرومي كقصيدته في «وحيد» المغنية:

---

(١) يريد بالبيضاء السوداء بدليل ما بعدها، كما ننادي نحن الأسود: يا أبيض.

ظبيـــة تـــسكن القلـــوب وترعـــا ... هـــــا وقُمريـــــة لهـــا تغريـــــد

حـــسنها في العيـــون حـــسن جديـــد ... فلهـــا في القلـــوب حُـــب جديـــد

تتغنـــــي كأنهـــــا لا تُغنّـــــي ... مـــن ســـكون الأوصـــال وهـــي تجيـــد

مـــدَّ في شـــأو صـــوتها نَفَـــسٌ كـــا ... فٍ كأنفـــــاس عاشـــــقيها مديـــــد

...إلخ.

ويقول في وصف قينة مغنية وراقصة:

فتـــاة مـــن الأتـــراك ترمـــي بأسْـــهُم ... يُـــصبن الحـــشا في الـــسلم لا في المعـــارك

ظللنـــا لهـــا نُـــصْبًا تـــشك قلوبنـــا ... بـــذاك الـــشجا الفتّـــان لا بالنيـــازك

تطـــامن عـــن قـــدِّ الطـــوال قوامُهـــا ... وأربـــى عـــلى قـــدِّ القـــصار الحواتـــك

إذا هـــي قامـــت في الـــشفوف أضـــاءها ... ســـناها فـــشقَّت عـــن ســـبيكة ســـابك

وتبعه الشعراء في هذا العصر الذي نؤرخه، وتفننوا في وصف القينات، فقال ابن زُرَيْق الكوفي في قينة تسمى «دبسية» حسنة الغناء قبيحة المنظر:

أبـــــا ســـــــعيد أصِـــــخ لي ... يـــــا ســـــيدي ونـــــديمي

مُنيـــــت أمـــــس بـــــأمرٍ ... مـــــن الأمـــــور عظـــــيم

حـــــصلت عنـــــد صـــــديق ... حـــــر ظريـــــف كـــــريم

أســـــقى عـــــلى شـــــدو «دبْـــــ ... ـــــسيةٍ» فتنفـــــي همـــــومي

فكنـــــت حـــــين تغنـــــي ... لـــــدى جِنـــــان النعـــــيم

وإن نظـــــرتُ إليهـــــا ... ففـــــي العـــــذاب الألـــــيم

وإن شربت بصوت فالراح بالتسنيم
وإن شربت بلحظ فالمهل بالزَّقوم
فكان سمعي بخير ومقلتي في الجحيم

إلخ إلخ.

والطامة الكبرى ما غشي المجتمع من حب للغلمان ظهر صداه في الأدب.

لقد كان أبو نواس يغنّي في هذا الباب وحده أو مع فئة قليلة؛ فلما جاء هذا العصر كان أكثر الشعراء يطرقون هذا الباب، ويفيضون فيه في تحفظ حينًا، وفي استهتار أحيانًا، كأبي تمام والبحتري والصنوبري، وكشاجم وأبي الفتح البستي وابن حجاج، وابن سكرة، والقاضي التنوخي، والثعالبي، وأبي فراس، والصابي كلهم له أشعار كثيرة في هذا الباب تفننوا فيها، حتى الوزير المهلبي لم يمنعه منصبه أن يقول في مملوك تركي جميل قاد جيشًا لمحاربة بني حمدان:

ظبي يَرِق الماء في وَجناته ويروق عُوده
ويكاد من شِبْه العذا رى فيه أن تبدو نُهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفًا ومنطقة تئوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومَن يقوده

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين كما تملك الجواري، يقومون بالخدمة في البيوت وفي الأعمال التجارية، وهؤلاء الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم. ومن أشهر قصائد ذلك العصر قصيدة سعيد الخالدي التي يصف فيها غلامه بأنه معشوقه، وخازن داره، ومدبِّر ماله، وناقد شعره، وطاهيه ونديمه، وغدت القصيدة

مضرب المثل في هذا الباب:

ما هو عبدٌ لكنه ولد ... خوَّلنيه المهيمن الصمد

شدَّ أزري بحسن خدمته ... فهو يدي والذراع والعضد

صغير سن كبير منفعة ... تمازج الضعف فيه والجلَد

* * *

أنسي ولهوي وكل مأربتي ... مجتمع له فيه ومنفرد

خازن ما في داري وحافظه ... فليس شيء لديه يفتقد

ومنفق مشفق إذا أنا أسـ ... ـرفت ويذرت مقتصد

ويعرف الشعر مثل معرفتي ... وهو على أن يزيد مجتهد

وصيرفي القريض وزان دنانـ ... ـير المعاني الرقاق منتقد

يصون كتبي فكلها حسن ... يطوي ثيابي فكلهنا جدد

وأبصر الناس بالطبيخ فكالمسـ ... ـك القلايا والعنبر الفَّرد

...إلخ.

بل نرى من هذا ظاهرة غريبة، وهي عدم تحرج ذوي المناصب الكبيرة كالوزراء والقضاة من كثرة القول في هذا الباب، مما يدل على أن الرأي العام قد فتر استنكاره له، وعده من باب الظرافة والمجنون إلا في الأوساط المتشددة؛ كالذي ذكر أبو حيان التوحيدي من أن أبا عبد الله البصري كان يسمع غلامًا يغني:

أنسيتَ الوصل إذ بتنا على مرقد وَرْد

واعتنقنا كوشاح وانتظمنا نظم عِقد

وتعطفنـــــــا كغـــــــصن ـــــــين فقـــــدَّانا كقـــــد

فطرب أبو عبد الله طربًا شديدًا، فعابوه على ذلك، وقدحوا في دينه وألصقوا به الريبة[1].

وظاهرة أخرى وهي أن كثرة المجون، والخلاعة، واللهو واللعب في هذه الأوساط الاجتماعية أنتجت شاعرين يمثلان هذا أشنع تمثيل، وهما: ابن حجاج وابن سكّرة؛ فابن حجاج قال فيه الثعالبي: «إنه في شعره لا يستتر من العقل بسجف، ولا يبني جلَّ قوله إلا على سخف... يمد يد المجون فيعرك بها أذن الحزم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل». وقد استعمل في شعره بعض ألفاظ العوام، وشبّه أفظع التشبيهات وأشنعها، ومع هذا كله راج شعره رواجًا كثيرًا، فكان يباع ديوان شعره من خمسين دينارًا إلى سبعين، ونفق شعره عند العامة والخاصة «فكانت تتفكه الفضلاء بثمار شِعره، وتستملح الكبراء ببنات طبعه، وتستخفّ الأدباء أرواح نظمه، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه... ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء، فلم يُخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله، ونتائج فحشه، وهو عندهم مقبول الجملة، غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام».

ومثله ابن سكّرة؛ قال فيه الثعالبي أيضًا: «فائق في قول المُلَح والظرف، أحد الفحول الأفراد، جار في ميدان المجون والسخف ما أراد».

ولم يتحرجا من أن يقولا أقبح المعاني في أصرح لفظ، ومع ذلك جرى شعرهما في الناس، واختار الثعالبي منه أخفَّه، وهذا الأخف مقذع شنيع؛ فرواج هذا الشعر أكبر دليل على ما وصل إليه الانحلال الخلقي في هذا المجتمع.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٢/ ١٧٥.

هذه الصورة للأدب تصور الحياة الاجتماعية في نعيمها وترفها، ولهوها ومجونها. وثم وجه آخر هو الفقر والبؤس والتحايل على كسب العيش انعكست صورته على الأدب أيضًا.

من ذلك أن جماعة رأوا حياة الأغنياء والتجار والأدباء والعلماء في حرج وشدَّة، فالأغنياء يصادَرون، والتجار ترهقهم الضرائب، والأدباء والعلماء لا يجدون ما يأكلون إلا إذا اتصلوا بأمير، فاتخذوا وسيلتهم في كسب العيش التسول عن طريق الأدب الشعبي أحيانًا، والنصْب والاحتيال أحيانًا؛ ووجدت طائفة كبيرة من هذا القبيل سموا الساسانيين أو بني ساسان، أو أهل الكُدية.

وساسان هذا قد رووا فيه أقوالًا مختلفة، فمن قائل إنه ساسان بن أسفنديار كان. من حديثه أنه لم حضر أباه الوفاة فوَّض أمر الحكم إلى ابنته، فأنف ساسان من ذلك، واشترى غنمًا وجعل يرعاها وعُيِّر بأنه راعي الغنم، فقيل: ساسان الراعي، وساسان الكردي؛ ثم نسب إليه كل من تكدَّ «تسوَّل» فيقال: فلان بن بني ساسان. وقيل: كان ساسان ملكًا من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس، ونهب كل ما كان له، واستولى على ملكه فصار رجلًا فقيرًا يتردد في الأحياء ويستعطي، فضرب به المثل. وقيل: إنه كان رجلًا فقيرًا بصيرًا في استعطاء الناس والاحتيال، فنسبوا إليه.

وكانت طائفة يتجول أفرادها في البلاد يستجدون ويحتالون، وكان عند بعضهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس كشأن ما نسميهم في مصر «الأدباتية»، وعند بعضهم دهاء وحيل لابتزاز المال.

هذه الطائفة كان من صداها في هذا العصر ظهور نوع من الأدب جديد هو مقامات بديع الزمان الهمذاني، ثم الحريري، وكلها حكايات قصيرة تدور كل منها

حول حيلة يحتالها رجل لكسب شيء من المال عن طريق التكدي صيغت في أسلوب أدبي. وكل مقامات البديع بطلها أبو الفتح الإسكندري، وكل مقامات الحريري بطلها أبو زيد السروجي، والبطل يحتال لقنص المال في كل مقامة.

وقد ورد ذكر الساسانيين في مقامات بديع الزمان، وأوضح لنا الحريري في مقامته المسماة بالمقامة الساسانية كثيرًا من البواعث الدافعة على التسول فقال: «سمعت أن المعايش إمارة، وتجارة، وزراعة، وصناعة، فمارست هذه الأربع. لأنظر أيها أوفق وأنفع، فما أحمدت منها معيشة، ولا استرغدت عيشة، أما فرَص الولايات، وخُلَس الإمارات، فكأضغاث الأحلام، والفيء المتنسِخ بالظلام، وناهيك غصة بمرارة الفِطام؛ وأما بضائع التجارات للمخاطرات، وطُعمة للغارات، وما أشبهها بالطيور الطائرات؛ وأما اتخاذ الضياع، والتصدّي للازدراع، فمنهكة للأغراض، وقيود عاتقة عن الارتكاض، وقلما خلا ربها عن إذلال، أو رُزق رَوْح بال؛ وأما حِرَف أولي الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات، ولا نافقة في جميع الأوقات... ولم أر ما هو بارد المغنم، لذيذ المطعم، وافي المكسب، صافي المشرب، إلا الحرفة التي وضع ساسان أساسها، ونوَّعَ أجناسها، وأضرم في الخافقين نارها، وأوضح لبني غبراء منارها... إذ كانت المتجر الذي لا يبور، والمنهل الذي لا يغور... وكان أهلها أعز قبيل، وأسعد جيل، لا يرهقهم مسُّ حيف، ولا يقلقهم سلُّ سيف... ولا يرهبون ممن برق ورعد، ولا يحفلون بمن قام وقعد... أينما سقطوا لقطوا، وحينما انخرطوا خرطوا، لا يتخذون أوطانًا، ولا يتقون سلطانًا». ثم بيَّن شروط النجاح فيها، وقال: إنها تحتاج إلى النشاط والحركة، وإلى الفطنة، وإلى القحة، وإلى المكر والحيلة، وروى أنه كان مكتوبًا على عصا شيخنا ساسان: «من طَلَب جَلَب، ومن جال نال»، كما أنها تحتاج إلى الحَلْب بصوغ اللسان، وسحر البيان، والصبر، وعدم اليأس، وتفضيل الذَّرة المنقودة على الدرة الموعودة إلخ.

واشتهر من شعراء بني ساسان في القرن الرابع شاعران كبيران يعاصران البديع، ويسبقان الحريري، وهما الأحنف العكبري، وأبو دلف الخزرجي. فالأحنف كان آدب بني ساسان ببغداد، وقد اشتهر بالظرف والشعر الرقيق في الحرفة الساسانية كقوله:

قد قسم الله رزقي في البلاد فما ... يكاد يُدْرَك إلا بالتفاريق
ولست مكتسبًا رزقًا بفلسفة ... ولا بشعر ولكن بالمخاريق
والناس قد علموا أني أخو حِيَلٍ ... فلست أنفق إلا في الرساتيق

ووضع قصيدة دالية في هذه الحرفة يقول فيها:

على أني بحمد الله في بيت من المجد
بإخواني بني ساسا ... ن أهل الجِدِّ والجَدِّ
لهم أرض خراسان ... فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج ... إلى البلغار والسند
إذا ما أعوز الطرقُ ... على الطرَّاق والجند
حذارًا من أعاديهم ... من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج ... بلاد سيفٍ ولا غِمد
ومن خاف أعاديه ... بنا في الروع يستعدي[1]

وأبو دلف كان من الواردين على الصاحب بن عباد في الري؛ وقد طوَّف البلاد

(١) يقول -في البيت الأخير-: إن ذوي الثروة إذا وقع أحدهم في يد قطاع الطريق وأحب التخلص؛ قال: إني من بني ساسان.

مكديًا، وحاكى الأحنف العكبري في داليته الساسانية برائية مثلها مطلعها:

جفـــون دمعهـــا يجـــري ... لطـــول الـــصدِّ والهجـــر

ومنها:

عـــلى أني مـــن القـــوم ... البهاليـــل بنـــي الغـــر

بنـــي ساســـان والحـــامي ... الحمـــى في ســـالف العـــصر

فـــنحن النـــاس كـــل النـــا ... س في الـــبرِّ وفي البحـــر

أخـــذنا جِزيـــة الخلـــق ... مـــن الـــصين إلى مـــصر

إلى طنجـــة بـــل في كـــ ... ـــل أرض خيلنـــا تـــسري

لنـــا الـــدنيا بـــما فيهـــا ... مـــن الإســـلام والكفـــر

فنـــصطاف عـــلى الـــثلج ... ونشتو بلد التمر

...إلخ.

وقد استعمل في هذه القصيدة الألفاظ الاصطلاحية لبني ساسان، وأبان كثيرًا من أنواع حيلهم، وطريقة ابتزازهم أموال الناس، فمن باب استعمال الألفاظ -مثلًا- استعماله دَوَّر إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء؛ ورَعَّس بمعنى طاف على حوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزة ومن هنا لوزة؛ و«الكَذَّابات» بمعنى العصابات يشدونها على جباههم يوهمون بها أنهم مرضى إلخ.

واستعمال الحيل مثل إيهام الناس أنه يجمع الصدقة للخروج إلى الغزو، أو يحتال على من أصيب بوجع الضرس فيجعل دود الجبن فيما بين أسنانه ثم يخرجه ويوهم أنه أخرجه بالرقية، أو يتعامى وهو بصير، أو ينظر في الفال والزجر والنجوم، أو

يعطي قومًا دراهم حتى يأتوا ويسألوا عن نجمهم تحميسًا للناس أن يحذوا حذوهم إلخ.

ولهم لغة خاصة وأدب خاص واصطلاحات لا يكاد يفهمها غيرهم، وتسمى «مُنَاكاة بني ساسان».

قال الثعالبي في وصف الصاحب بن عباد: «وكان الصاحب يحفظ مناكاة بني ساسان حفظًا عجيبًا، ويعجبه من أبي دلف وفور حظِّه منها، وكانا يتجاذبان أهدابها، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرهما»[1].

ولعلَّ المناكاة مفاعلة من نكى بمعنى أتى عملًا لإغضاب الغير وقهره، ومنه «ضعيف النكاية أعداءه»، فيظهر أنه كان من حيلهم أنهم يتهاجون ويتسابون ويتخاصمون تصنُّعًا حتى يستلبوا مال الناس؛ ولعلَّ المقامة الدينارية في مقامات البديع -التي تمثل رجلين يتسابَّان بأقبح السباب من هذا الضرب- وقد جمع فيها كل سب كان في عصره من مثل: يا برد العجوز، يا وسخ الكوز، يا درهمًا لا يجوز، يا سَنَة البوس، يا كوكب النحوس إلخ؛ فردَّ عليه الآخر بقوله: يا قَرَّاد القرود، يالَبود اليهود، يا عدمًا في وجود إلخ. وقد ذكر البديع في هذه المقامة أنهما كانا من بني ساسان.

فترى من هذا أن الضرب من الحفاة الذي جرَّ إليه سوء الحالة الاقتصادية وعدم التوازن الاجتماعي، والإفراط في البؤس بجانب الإفراط في الترف، قد انعكست صورته على الأدب، فأخرج المقامات وغيرها من أدب التكدي، كما أخرج شعرًا كثيرًا في شكوى الزمان وسوء الحال، من مثل ما نراه في شعر ابن لَنْكَك البصري

(١) يتيمة: ٣/ ١٧٥.

كقوله:

يـــا زمانًـــا ألــبس الأحــــــــرار ذُلًّا ومهانـــة
لـــستَ عنـــدي بزمـــان إنـــما أنـــت رمانـــه
كيـف نرجـو منـك خـيرًا والعـلا فيـك مهانـه
أجنـونٌ مـا نـراه منـك يبـدو أم مجانـه

وقوله:

جـار الزمـان علينـا في تـصرُّفه وأي دهـر عـلى الأحـرار لم يجُـرِ
عنـدي مـن الـدهر مـا لـو أنَّ أيسره يُلقـى عـلى الفَلَـك الـدوَّار لم يَـدُر

وقوله:

نحـن والله في زمـان غـشوم لـو رأينـاه في المنـام فزِعنـا
يـصبح النـاس فيـه مـن سـوء حـال حـق مـن مـات مـنهمُ أن يُهنَّـا

إلخ إلخ.

وله في ذلك الشيء الكثير بين جدٍّ وهزل.

* * *

وكانت في هذا العصر مجموعة من الشعراء تمثل صور الحياة الاجتماعية المختلفة؛ فالصَّنَوْبري الحلبي يمثل الترف والنعيم والعيش الرغد، ينعم بالقصر الفخم والحديقة الغناء، ويتغنى بجمال الأزهار وجمال الطبيعة، فله شعر في الورد، وشعر في حديقة يعتز بها ويقول فيها:

لو كنت أملك للرياض صيانة ... يومًا لما وطئ اللئام ترابها

وقطع في وصف الورد والنرجس والأقحوان والنمام والسوسن والشقبق والبنفسج والياسمين إلخ؛ ثم غزل قليل.

ويقيم مناظرة بين الورد والنرجس فيقول:

زعم الورد أنه هو أبهى ... من جميع الأنوار والريحان
فأجابته أعين النرجس الغـ ... ـض بذلٍّ من فوقها وهوان
أيُّما أحْسَنُ التورد أم مقـ ... ـلة ريم من فضة الأجفان؟
أم فماذا يرجو بحمرته الخـ ... ـد إذا لم يكن له عينان؟!
فزها الورد ثم قال مجيبًا ... بقياس مستحسَنٍ وبيان
إن ورد الخدود أحسن من عيـ ... ـن بها صفرة من اليَرَقان

والذي مكَّن له في هذا غناه؛ فقد كان له بمدينة حلب قصر فخم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج، إلى ذوق فني يغني في جمال الأزهار.

يقابله الشاعر ابن لنكك الذي كان يصور البؤس والفقر وعبث الأقدار؛ وقد قال فيه الثعالبي: «كانت حرفة الأدب تمسه وتجمشه، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه، ونفسه ترفعه، ودهره يضعه»، فأفاض في شكوى الزمان، وجوده، وعجائبه:

نحن من الدهر في أعاجيبِ ... فنسأل الله صبر أيوبِ
أقفرت الأرض من محاسنها ... فابك عليها بكاء يعقوبِ

وقد سبق أن ذكرنا بعض شعره في هذا الباب.

وإذا كانت الحياة الاجتماعية بين بائس ومجدود، غنى ذلك نغمةً مرحة في ترفه ونعيمه وزهوره، وغنى هذا نغمة حزينة في بؤسه وفقره وخذلان زمانه له.

والمتنبي يمثل في مجتمعه ما كان من أحداث في الحروب بين الحمدانيين والروم؛ فقد كان شاعر سيف الدولة، وكان شاعرًا فارسًا يغشى الحروب مع سيف الدولة، ويسجل حوادثها تسجيلًا أدبيًّا في النصر والهزيمة، والضرب والطعان، والأسر والسبي، فشعره في هذا وصف لمعمعة القتال والمعيشة الحربية.

ثم هو يمثل الأدب الأرستقراطي، فهو يمثل الأدب الذي يعيش على موائد الملوك، فلم يكن يمدح إلا ملكًا أو شبه ملك؛ وقد ترفع عن مدح الصاحب بن عباد وهو ما هو في منزلته وجاهه. فشعره ينقسم إلى سيفيات في سيف الدولة، وكافوريات في كافور، وعضديات في عضد الدولة؛ ولكنه في مديحه هذا يرفع نفسه إلى مرتبة من يمدحه، فيكون صديقًا أو حبيبًا لا عبدًا مستجديًا؛ فيقول في كافور:

وما أنا بالباغي على الحبِّ رشوة ... ضَعِيفُ هوى يُبْغَى عليه ثَوَابُ

وما شئتُ إلا أن أدل عواذلي ... على أن رأيي في هواك صَوَاب

إذا نلت منك الودَّ فالمال هيِّن ... وكل الذي فوق التراب تراب

ويقول في ابن العميد:

تفضَّلت الأيام بالجمع بيننا ... فلما حمدنا لم تُدمْنا على الحمد

فجد لي بقلب إن رحلت فإنني ... مخلف قلبي عند من فَضْلُه عندي

وفي سيف الدولة:

يا أعدلَ الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

* * *

سيعلم الجمع ممن ضَمَّ مجلسُنا ... بأنني خيرُ من تسعى به قدَم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صَمَم

أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جَرَّاها ويختصم

ونَقَد المجتمع نقدًا مرًّا؛ ولكن لا من ناحية أنه لم يجد ما يأكل كابن لنكك، ولا من ناحية أن مجتمعه في نفسه فاسد كأبي العلاء، ولكن من ناحية أنه وازن بين نفسه وكفايتها في الحرب والأدب وطلب المجد، وبين ملوك زمانه وأمرائه، فرأى أنه أحق بالملك أو بالإمارة منهم، فهجا المكان والزمان والدنيا:

لحا الله ذي الدنيا مناخًا لراكب ... فكل بعيد الهم فيها معذَّب

* * *

ودهر ناسه ناس صغار ... وإن كانت لهم جُثث ضِخام

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام

فشبه الشيء منجذب إليه ... وأشبَهُنا بدنيانا الطَّغام

* * *

إذا ما الناس جرَّبهم لبيب ... فإني قد أكلتهمو وذاقا

فلم أر ودَّهم إلا خداعًا ... ولم أر دِينهم إلا نِفاقا

* * *

يقولون لي ما أنت في كل بلدة ... وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسْمَى[1]

كأن بنيه عالمون بأنني ... جلوبٌ إليهم من معادِنه اليتما

---

(١) يريد قتل الولاة والاستيلاء على ملكهم.

وما الجمع بين الماء والنار في يدي ... بأصعب من أن أجمع الجَدَّ والفهما

* * *

وإني لمن قوم كأنَّ نفوسهم ... بها أنَف أن تسكن اللحم والعظما

ويرى علَّة فساد المجتمع فساد ملوكه، ولا يصلح للعرب إلا ملوك من العرب، وهو يرشح بذلك لنفسه:

سادات كل أناس من نفوسهم ... وسادة المسلمين الأعبد القَزَمُ

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ... يا أمةً ضحكت من جهلها الأمم

ألا فتًى يورد الهنديَّ هامته ... كيما تزول شكوك الناس والتهم

* * *

رِدِي حياض الردى يا نفس واتركي ... حياض خوف الردى للشاء والنَّعَم

إن لم أذرك على الأرماح سائلة ... فلا دعيت ابن أم المجد والكَرَم

أيملك الملكَ والأسياف ظامئة ... والطير جائعة لحم على وضم؟

ميعاد كل رقيق الشفرتين غدًا ... ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فهو بذلك كله ينقد المجتمع ويذم الدهر من ناحيته الشخصية، وهو أنه لم يُنله مقصده.

كما أنه يمثل مجتمعه من ناحية أخرى دقيقة؛ فقد كان في الشام والعراق ومصر بدو وحضر، وتثقف المتنبي ثقافة بدوية وحضرية؛ وأقام في البدو حينًا وعاش عيشتهم واستفاد من ألفاظهم وأساليبهم؛ ثم خالط سيف الدولة وكافورًا وعضد الدولة، وأكل على موائدهم، ورأى ترفهم ونعيمهم، فكان لذلك صدى في شعره؛

فهو بدوي حضري: بدوي في لفظه وأسلوبه وقوته وجزالته، وفي كثير من معانيه وأوصافه كوصف الخيل والسلاح؛ حضري في بعض معانيه كوصف الفَازَة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان، ويصف بطيخة من الندِّ في غشاء من خيزران عليها قلادة لؤلؤ وعلى رأسها عنبر قد أدير حولها إلخ.

ويحن إلى الأعرابيات، ويتشبب بهن، ويفضلهن على الحضريات:

مَن الجآذِرُ في زي الأعاريب ... حُمْرَ الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

ما أوجه الحضر المستحسناتُ به ... كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرِية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

أين المعيز من الآرام ناظرة ... وغير ناظرة في الحسن والطيب

أفدي ظباء فلاة ما عَرِفْن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمَّام مائلة ... أوراكهن صقيلات العراقيب

ومِنْ هَوَى كل من ليست مموهة ... تركت لون مشيبي غير مخضوب

ومن هوى الصدق في قوله وعادته ... رغبت عن شَعَر في الرأس مكذوب

فهو يمثل أيضًا ما كان في عصره من بداوة وحضارة، وبساطة في العيش وتركيب.

وابن حجاج، وابن سكّرة يمثلان الأدب الشعبي، وحالة العصر في مجونه وهزله، وفساده وانحطاطه، وأدبه المكشوف الذي لا يرعى خُلقًا ولا ذوقًا، فكل لفظة مهما تعرَّت وسقطت صالحة لأن تكون في الشعر، وأن تقال في حضرة الملوك والوزراء والقضاة، وتختار فيما يختار للمتأدبين، كما فعل الثعالبي في اليتيمة؛ وقد

سبق بعض القول فيهما.

والشريف الرضي يمثل طبقة الأشراف المثقفة الواسعة العلم، المعتزة بجاهها ونسبها ومنصبها، تعيش عيشة الترف، وتجالس الخلفاء والوزراء من ناحية، وتتصل بحكم منصبها بالشعب -إذ كان نقيب الأشراف- من ناحية أخرى.

فيقول الشعر اعتزازًا بالجاه والنسب، ويخاطب الخليفة القادر:

عطفًا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوُت ... أبدًا كلانا في العلاء معرَّق

إلا الخلافة ميَّزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوَّق

وهو لمركزه يقيد كثيرًا من أحداث التاريخ العظمى التي شاهدها؛ وقد شاء القدر أن يكون في مجلس الخليفة الطائع يوم فتك الفرس به، كما كان البحتري في مجلس المتوكل يوم فتك الترك به، وخرج هذا -كما خرج ذاك- هائمًا، وقال «الشريف» في ذلك قصيدته التي مطلعها: «الواعج الشوق تخطيهم وتصميني». وقد تقدمت نبذة منها. وله في ذلك قصيدة أخرى منها:

إن كان ذاك الطود خرَّ ... فبعد ما استعلى طويلا

* * *

لهفي على ماض قضى ... ألّا ترى منه بديلًا

وزوال مُلْكٍ لم يكن ... يومًا يقدَّر أن يزولا

وقال قصيدته الأخرى:

أي طودٍ دُكَّ من أي جبال ... لقحت أرض بِه بعد حِيَال

مــــا رأى حــــيٌّ نـــــزارٍ قبلهـــــا جَـنبَلًا ســـار عـــلى أيـــدي رجـــال
عقـــروا ليثـــا ولـــو هَـــاهَوا بـــه كـــان بعـــد العَقْـــر أرجـــى للـــصِّيالِ

* * *

وكــــأني خَلَـــــل الغيـــــب أرى نَغْــرة مـــن جرحهـــا بعـــد انـــدمالِ
وإذا الأعــــــداء عَـــــدُّوك لهـــــا ســـلموا فـــضلك مـــن غـــير جـــدال
لا أضـــــاعوا رابئـــــا في قُلـــــة كـــلأ المجـــد وقـــد نـــام الكـــوالي[1]
يـــوم للـــشعب دهــــان مــــن دم والمـــواضي للمقـــاديم[2] فـــوالي

* * *

فـــاتني منـــك انتـــصار بيمينـــي فتلافيـــت انتـــصارًا بمقـــالي

...إلخ.

وقد كانت ثورة البحتري أقوى وأصرح وأعنف، إذ لم تكن النفوس اعتادت «التقية» من كثرة ما أصابها من ظلم.

هذا إلى ما يسجله من أحداث كثيرة من رجال الدولة البويهية.

كما أنه كان شاعر الشيعة يشكو الزمان لعدم إنصافهم، ويعدد مزاياهم واستحقاقهم، ويرثي لما أصابهم، ويرثي الحسين إلخ. فهو لسان العلويين والطالبيين، وباعث الأمل فيهم في استرداد حقوقهم، ونيل ما فاتهم.

ثم له الناحية الخاصة في حياته، التي يمثل في شعره فيها حياة الأدباء والظرفاء

(١) الرابئ: الناشئ. الكوالي: الحراس.
(٢) مقاديم: جمع مقدام.

الموسرين من غزل في الحرائر والإماء، من مثل قوله:

وتميس بين مزعفر ومعصفر ومعنبر ومُمَسَّك ومصندل
وإذا سألتُ الوصل قال جمالها جودي، وقال دلالها لا تفعلي

وفي الغلمان على عادة عصره، مثل قوله في غلام لا يحسن التكلم بالعربية:

حبيبيَ ما أزرى بحبِّك في الحشا ولا غضَّ عندي منك أنك أعجم
بنفسي من يستدرج اللفظ عجمة كما يمضغ الظبيُ الأراك ويبغم

وله الأبيات الكثيرة في وصف الزهور، والسماء والنجوم، وحمامة وفرخيها، والبرق والفجر إلخ.

ويظهر أنه كان ضعيف الصحة، مصابًا بالأمراض، ومعرَّضًا للأخطار، فارتاع من الشيب وأكثر من وصفه، وأجاد في مراثي أصدقائه وأقربائه إجادة فائقة؛ وقد كان صديقًا لكثير من علماء عصره وأدبائهم سبقوه إلى الموت، فخلَّد عواطفه نحوهم في شعر رقيق.

وأبو العلاء المعري في لزومياته ناقد للمجتمع لا لما جناه المجتمع على شخصه كما فعل المتنبي، ولكن لما جناه المجتمع على نفسه.

فالملوك في وضعهم الحقيقي خدَّام الرعية، ولكنهم بالفعل ظالموها ومستغلُّوها:

مُلَّ المُقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

وهؤلاء الولاة المسيطرون على الناس لا عقل لهم، ولا عدل عندهم، شياطين في

obeikandl.com

ثياب ولاة، لا يهمهم جوع الناس إذا ملئت بطونهم، وخَمِرت رؤوسهم:

ســاس الأنــامَ شــياطين مــسلَّطة ... في كــل مــصرٍ مــن الــوالين شــيطا

مــن لــيس يحفــلُ حَمــص النــاس كلُّهــمُ ... إن بــاب يــشرب خمــرًا وهــو مِبْطــان

وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو أشدّ قسوة، لا يرحمون دمعة مظلوم، ولا يجيبون صرخة مستغيث:

يجــور فينفــي المِلْــك عــن مــستحِقه ... فتُــسْكَبُ أسراب العيــون الــدوامع

ومــن حولــه قــومٌ كــأن وجــوههم ... صَــفًا لم يُلَــيّن بــالغيوث الهوامــع

والقضاة لا عقل ولا عدل:

وأي امــرئ في النــاس ألْفــيَ قاضــيًا ... فلــم يُمــضِ أحكامًــا كحكــم سَــدوم؟

وفقهاء، صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام:

كــأن نفــوس النــاس والله شــاهد ... نفــوسُ فَــرَاشٍ مــا لهــن حُلــوم

وقــالوا فقيــه والفقيــه ممــوَّهٌ ... وحِلْــفُ جِــدَال والكــلامُ كُلُــومُ

ووعّاظ، يقولون ما لا يفعلون، ويأتون ما ينكرون:

رويــدك قــد غُــرِرْت وأنــت حــرٌّ ... بــصاحب حيلــة يعــظ النــساء

يحــرِّمُ فــيكم الــصهباء صــبحًا ... ويــشربها عــلى عَمْــدٍ مــساء

وشعراء، ليسوا إلا لصوصًا يعدُون على من قبلهم في سرقة أقوالهم، ويعدون على الأغنياء بمديحهم لسلب أموالهم:

ومــا شــعراؤكم إلا ذئــاب ... تَلَــصَّصُ في المــدائح والــشباب

أَضَرّ -لمن تَوَدُّ- من الأعادي وأسرق للمقال من الزَّباب[1]

وقوم تسودهم الخرافة فيلجئون إلى المنجّمين والعرّافين والمعزّمين، وما لهؤلاء من علم، ولكنها شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفَّلين والمغفَّلات:

متكهِّن ومنجِّم ومُعزِّم وجميع ذاك تحيُّلٌ لمعاش

* * *

لقد بكَّرت في خُفّها وإزارها لتسأل بالأمر الضرير المنَجَّما

وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحِجَا فيرجَّما

يوهم جُهّال المحَلّة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما

ولو سألوه بالذي فوق صدره لجاء بمَيْن أو أرَمَّ وجمجما

* * *

سألَتْ منجِّمها عن الطفل الذي في المهدِ كم هو عائش من دهره

فأجابها مائةٌ ليأخذ درهمًا وأتى الحِمامُ وليدَها في شهره

وبعد أن نقدهم طبقات، من الملوك إلى القضاة إلى الوعاظ إلى التجار إلى النساء، نقدهم جملة، فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون إلا للفناء:

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطِروا فلا يَظُنّن جهول أنهم فسدوا

* * *

لو غربل الناس كيما يُعدَموا سَقَطًا لما تحصل شيء في الغرابيل

أو قيل للنار خُصّي مَن جَنى، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرابيل

---

(١) الزباب: الفأر العظيم.

* * *

يحسُنُ مرأى لبني آدم ... وكلهمْ في الذوق لا يَعْذُب
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسك ... إلا إلى نفع له يَجْذِب
أفضل من أفضلهم صخرةٌ ... لا تظلم الناس ولا تكذب

وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يُصغوا إليه ولم يلتفتوا له، وتجاذبَهم عقلٌ يُرْشد وطبعٌ يُغوِي، فجروا وراء طبعهم وأهملوا عقلهم:

فأوسِعْ بني حواء هُجْرًا فإنهم ... يسيرون في نهج من الغدر لاحِب
وإن غيَّر الإثمُ الوجوهَ فما ترى ... لدى الحشر إلاّ كلَّ أسودَ شاحِبِ
إذا ما أشار العقل بالرشد جرّهم ... إلى الغيّ طبعٌ أخذهُ أخذ ساحِب

* * *

واللب حاول أن يهذب أهلَه ... فإذا البرية ما لها تهذيب
من رام إنْقاء الغراب لكي يرَى ... وَضَح الجناح أصابه تعذيب

* * *

إلى الله أشكو مهجةً لا تطيعني ... وعالَمَ سوء ليس فيه رشيد
حجًى مثلُ مهجور المنازل داثرٌ ... وجهلٌ كمسكون الديار مَشيد

* * *

العقل إن يضعُفْ يكن مع هذه الـ ... ـدنيا كعاشقِ مومِسٍ تُغويه
أو يَقْوَ فهي له كحرةٍ عاقلٍ ... حسناء يهواها ولا تُهْوِيه

* * *

فطبعُك سلطان لعقلك غالبٌ ... تَداولُه أهواؤه بالتَّشصُّص

سُـــقيتَ شرابًـــا لم تهنّـــأ بِـــبرْده فعُنِّيـتَ مـن بعـد الـصدى بالتغـصّص

* * *

وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه، وكان في كل ذلك موفّقًا كل التوفيق، ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك عيوب المجتمع في جملتها وتفصيلها، ويعالج ظواهرها، ويعمق في النفس الإنسانية في دقّة وتحليل؛ فيصل إلى دخائلها.

وأبو حيان التوحيدي يمثّل في أدبه وكتابته علاقة الأدباء والعلماء بالولاة والوزراء والأغنياء، فإن أُعطوا حسنت حالهم، وإلا ساء عيشهم، إذ لا موردًا آخر لهم. وقد كان أبو حيان غير موفَّق في استجدائه، ولعلَّ سبب ذلك أنه لم يكن لبقًا ولا ماكرًا إلى طول لسان، وإقذاع في الهجو لمن لا يعطيه، فعاش بائسًا فقيرًا؛ ومثّل ذلك في أدبه فيقول: «فقدت كل مؤنس وصاحب، ومُرفق ومشفق، ووالله لربما صلّيت في المسجد، فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي، فإن اتفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني بصنانه، وأسكرني بنتنه؛ فقد أمسيت غريب الحال، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنسًا بالوحشة، قانعًا بالوحدة، معتادًا للصمت، ملازمًا للحيرة، محتملًا للأذى، بائسًا من جميع ما ترى، متوقعًا ما لا بد من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول».

وقد خاب ظنُّه فيمن أملهم من مثل ابن العميد، وابن عباد، وابن سعدان، وأبي الوفاء البوزنجاني، فملأ كتبه: «الصداقة والصديق»، و«الإمتاع والمؤانسة»، و«المقابسات»، بالشكوى منهم، ثم لم يحظ بطائل.

هذا هو الأدب في ذلك العصر يصور المجتمع في شتى نواحيه.

obeikandl.com